مكتب جرير للتفريغ
محمد الشرقاوي
00201111633967

منظومة في علامات صحة القلب

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. عبد الرزاق البدر

الشرح الأول

المجلس: ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،.

فإن من أعظم ما ينبغي أن يعتني به المسلم قلبَه الذي عليه مدار الصلاح والفلاح، والسعادة والنجاح، فإن هذا القلب إذا صلح واستقام على طاعة الله تبارك وتعالى تبعته الجوارح، وإذا فسد –عياذًا بالله- تبعته الجوارح في الفساد، فهو مع الأعضاء بمثابة الملك مع جنوده، إن طاب طابت، وإن خاب خابت، بل شأن القلب أعظم من ذلك؛ لأنه قد يطيب الملك ويخيب بعض الجند، وقد يخيب الملك ويصلح بعض الجند، أما القلب إن فسد فسدت الجوارح، وإن صلح صلحت، فهي لا تتخلف عن مرادات القلوب، ولا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله سبحانه وتعالى بقلب سليم، {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والقلب السليم هو الذي سلم من أمرين:

الأمر الأول: الشهوة التي تخدش في إرادات القلب.

الأمر الثاني: الشبهة التي تخدش في علمه ومعرفته.

ولا صلاح لقلب ولا سلامة إلا بالسلامة من آفة الشهوة وآفة الشبهة، وآفة الشبهة فساد في العلم، وآفة الشهوة فساد في الإرادة والعمل، وبسلامة القلب من هاتين يكون القلب سليمًا ناجيًا صاحبه، {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ويقابل هذا القلب السليم القلب الميت، والقلب المريض الذي به مرض:

والقلب الميت: هو الذي لا حياة فيه، أماته الكفر بالله، والتكذيب لأنبياء الله، والجحد لدين الله تبارك وتعالى، ولا نجاة من هذا الموت إلا بالإسلام،{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢].

والقلب المريض: هو الذي به مرض: إما مرض شبهة سببها فساد في العلم، أو به مرض شهوة، وهذا فساد في الإرادة والعمل، وهذا المرض يقوى في الإنسان ويضعف ويزيد وينقص بحسب أسبابه وموجباته، وكلما عرَّض الإنسان نفسه لأسباب مرض القلب ازداد القلب مرضًا.

وإن من أهم ما ينبغي أن يعتني به المسلم هذا القلب، إصلاحًا له، وعملًا على سلامته، التجاءً إلى الله عز وجل الذي بيده قلوب العباد، وبيده هدايتها وصلاحها، وفي الدعاء المأثور: (اللهم: آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)، ثم مجاهدةً للنفس على صلاح القلب وسلامته واستقامته، والقلب إذا كان صحيحًا سليمًا فإن هذا الصلاح والسلامة للقلب تظهر شواهدها وبراهينها على جوارح العبد وسلوكه، كلما كان القلب أكثر استقامة وصدقًا وصلاحًا ظهرت الآثار.

ولهذا: ثمة علامات تدل وترشد على صحة القلب، ولا يلزم من وجودها أو علم العبد بها من نفسه أو من غيره، أن يزكي نفسه أو غيره، لكنها علامات وشواهد ودلائل على صحة القلب، فإذا وجدت في العبد فليحمد الله، وليجاهد نفسه على المحافظة عليها، وليسأل ربه تبارك وتعالى الثبات.

وللإمام العلامة ابن قيم الجوزية –رحمه الله تعالى– في كتابه: (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)، كلام عظيم جدًا عن القلب في أبواب عديدة صدَّر بها كتابه المشار إليه، وفي ضمن كلامه على القلب وصحته وأسباب مرضه، وغير ذلك من المسائل المتعلقة به، تكلم –رحمه الله– بكلام نفيس وتقرير مفيد عن علامات صحة القلب، فعدّد –رحمه الله– علامات عظيمة تدل على صحة قلب الإنسان، وهي موجودة في كتابه: (إغاثة اللهفان).

ثم إن الشيخ العلامة سليمان بن سحمان –رحمه الله تعالى– نظم هذه العلامات التي ذكرها ابن القيم –رحمه الله تعالى– في هذه المنظومة التي بين أيدينا، وقد قال في مقدمته لهذه المنظومة:

*** المتن ***

{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: ٤٣].

أما بعد،.

فقد اشتملت هذه المنظومة على ستة مشاهد، ذكرها العلامة ابن القيم –رحمه الله– في (إغاثة اللهفان) في علامة صحة القلب، وختمتُ ما ذكره الشيخ بذكر ما عليه أهل السنة والجماعة من الاعتقاد.

*** الشرح ***

هذه خلاصة ذكرها –رحمه الله تعالى– معرفًا بمحتويات هذه المنظومة وما اشتملت عليه، وأنه بناها على تقرير ابن القيم –رحمه الله– في كتابه: (إغاثة اللهفان)، فيما يتعلق بعلامة صحة القلب، وأيضًا المشاهد الستة العظيمة التي ذكرها –رحمه الله تعالى–، والتي ينبغي للعبد أن يشهدها في عبوديته لله، وسيأتي أن ابن القيم –رحمه الله– في رسالته المعروفة بـ: (رسالة ابن القيم لأحد إخوانه)، تكلم بشيء من التوسع نوعًا ما عن هذه المشاهد الستة، وكلها ستأتي معنا في ثنايا هذه المنظومة.

التعريف بالناظم:

وأما الناظم لهذه المنظومة الشيخ ابن سحمان –رحمه الله تعالى– فهو العلامة الشهير صاحب التصانيف والمؤلفات العديدة المفيدة النافعة، ويُقال عنه: حَسّان زمانه. لأنه صاحب شعر جيد في نصرة الدين، والذب عن سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ورد البدع والمحدثات، ونقض شبه أهل الضلال والباطل، فكان –رحمه الله– مجاهدًا بعلمه نظمًا ونثرًا، وله في ذلك كتب كثيرة.

مولده:

وكانت ولادته –رحمه الله– في سنة ألف ومائتين وست وستين من الهجرة (١٢٦٦ هـ)، في قرية من القرى القريبة من أبها جنوب المملكة.

نشأته وشيوخه:

ونشأ في أحضان والده الشيخ سحمان، وكان والده عالمًا فاضلًا حافظًا لكتاب الله، على شيء من الحظ والنصيب من العلم والفقه، فنشَّأ ابنه تنشئة فيها حرص على العلم، وجد في الطلب والتحصيل، وأقرأ ابنه القرآن حتى ختمه، ثم أخذ يلقنه مبادئ العلم، ثم انتقل بعد ذلك والده إلى مدينة الرياض في عام ألف

ومائتين وثمانين للهجرة (١٢٨٠ هـ)، وهناك التقى بأكابر من أهل العلم أخذ يتلقى عنهم، أبرزهم: الشيخ عبد الرحمن بن حسن، حفيد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب صاحب: فتح المجيد، وابنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن، لازمهما ملازمة تامة، واستفاد منهما استفادة كبيرة، ثم انتقل بعد ذلك والده إلى الأفلاج، وهناك تتلمذ على الشيخ حمد بن عتيق ولازمه سبع عشرة سنة.

مؤلفاته:

له -رحمه الله تعالى- مؤلفات كثيرة في نصرة العقيدة، والذب عن السنة، وله ديوان شعر، وهذه المنظومة التي بين أيدينا من جملة ديوانه المطبوع -رحمه الله تعالى-.

وفاته:

وكانت وفاته عام ألف وثلاثمائة وتسع وأربعين للهجرة (١٣٤٩ هـ).

هذه نبذة مختصرة عن الناظم، ونشرع الآن في مذاكرة هذه المنظومة.

*** المتن ***

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمد الله نبدأ في المقال * وذكر الله في كل الفعال**

فذكر الله يجلو كل هم * عن القلب السليم على التوالي**

*** الشرح ***

قوله: بسم الله الرحمن الرحيم: بدأ -رحمه الله تعالى- بالبسملة، وهو بدء فيه الاستعانة بالله تبارك وتعالى؛ لأن الباء في بسم الله باء الاستعانة، فالبدء بها بدء بالاستعانة بالله والاعتماد عليه في صلاح الأمر وتمامه وحسن الانتفاع به.

قوله: بحمد الله نبدأ في المقال، وذكر الله في كل الفعال: بدأ بالحمد والذكر، حمد الله عز وجل، وذكره سبحانه وتعالى، وقد جُمع بينهما في الدعاء المأثور في طلب العون، الذي علمه النبي صلى الله

عليه وسلم ومعاذًا -رضي الله عنه-، قال: (لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم: أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)، فبدأ بحمد الله، وذكره سبحانه وتعالى.

وذكر الله جلا وعلا مستلزم لمعرفته: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بنعمه ومننه وآلائه سبحانه وتعالى، وشكره متضمن لطاعته، والذل له، والعمل بما يرضيه سبحانه وتعالى، قد قال الله جلا وعلا: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً} [سبأ: ١٣].

ولهذا: الدين مبني على هاتين القاعدتين: الذكر والشكر، الذكر فيه المعرفة، والشكر فيه العمل بطاعة الله سبحانه وتعالى، وما يقرب إليه سبحانه.

ومن الآيات التي جُمع فيها بين الذكر والشكر: قول الله سبحانه وتعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢].

قوله: بحمد الله نبدأ في المقال: أي نبدأ مقالنا هذا حامدين لله، وحمد الله سبحانه هو الثناء عليه بما هو أهله مع الحب له جلا وعلا، والحمد يكون على الأسماء والصفات، ويكون على النعم والعطايا والهبات.

قوله: وذكر الله في كل الفعال: أي ونبدأ بذكر في كل الفعال.

والبسملة مشروع البدء بها في دخول المسجد، وفي الصلاة، ودخول المنزل، وعند الطعام، وأمور كثيرة من فعال العبد يبدأها بالبسملة، وعرفنا أن البسملة استعانة بالله تبارك وتعالى، وهي ذكر لله، يبدأها ذاكرًا لله بالبسملة، أو بغير ذلك من الذكر أيضًا المأثور عن نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثم أتبع ذلك ببيان فائدة عظيمة من فوائد الذكر.

قوله: فذكر الله يجلو كل هم، عن القلب السليم على التوالي: يجلو: أي يزيح عن القلب كل همّ، فالهموم التي تصيب القلب -ولها أسباب- يزيحها عن القلب ويجلوها عنه ذكر العبد لربه سبحانه وتعالى، وفي حديث ابن مسعود، عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: (ما أصاب عبدًا هم ولا حزن، فقال: اللهم: إني عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب

عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي. إلا أذهب الله حزنه وأبدله فرحًا)، وفي رواية: (فرجًا)، فذكر الله سبحانه وتعالى يزيح عن قلب المهموم كل همّ أصابه.

قوله: على التوالي: أي باستمرار، ما دام ذاكرًا لربه، معتنيًا بذكر الله سبحانه وتعالى، فإن ذكره لله جلا وعلا يجلو عن قلبه كل هم يصيبه.

والإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه: (الوابل الصيّب)، عدد فوائد كثيرة للذكر تزيد على السبعين فائدة، بعد أن أخبر أن للذكر أكثر من مائة فائدة، ثم أخذ يعدد حتى بلغ ما ذكره ما يزيد على السبعين فائدة من فوائد الذكر، ذكر من جملة هذه الفوائد، أنه يجلو عن القلب كل همّ.

قال -رحمه الله-: ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء.

*** المتن ***

فللقلب السليم إذا تزكى * علامات هنالك للكمال**

علامات لصحة كل قلب * سليم عن مداخلة الضلال**

علامات ذُكِرن بكل نثر * عن الأعلام واضحة المنال**

*** الشرح ***

هذه تقدمة بين يدي العلامات التي سيذكرها علامة تلو الأخرى، منبهًا -رحمه الله تعالى- في هذه التقدمة بأن القلب السليم إذا تزكى، إذا وفقه الله سبحانه وتعالى، فأصبح قلبًا زكيًا طاهرًا سليمًا، فهنالك علامات تدل زكاة القلب، وسلامة القلب تدل على ذلك.

قوله: علامات لصحة كل قلب سليم عن مداخلة الضلال: هنا تعريف للسلامة التي للقلب، وأنها سلامة من مداخلة الضلال، من شبهة تفسد على القلب علومه، أو شبهة تفسد عليه إراداته.

قوله: علامات ذكرن بكل نثر، عن الأعلام: العلماء ذكروها نثرًا، وهو يشير هنا إلى ما ذكره الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه: (إغاثة اللهفان).

قوله: واضحة المنال: لأنها معان واضحة، وشواهدها ودلائلها ظاهرة، فهي واضحة المنال، يعني من أراد معرفتها والوقوف عليها فهي واضحة، ليست ملتبسة ولا خفية، وابن القيم -رحمه الله- في (إغاثة اللهفان) قال: فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي. ثم قال: ومن علامة صحته كذا، ومن علامة صحته كذا. وأخذ يذكرها علامة تلو الأخرى، فأخذها الشيخ ابن سحمان، وساقها هنا نظمًا متينًا، نافعًا مفيدًا.

*** المتن ***

ولكني نظمت لها نظامًا * به أرجو التنافس في الفضال**

مع الإقرار بالتقصير فيها * وذكر للعقيدة في المقال**

*** الشرح ***

يقول -رحمه الله-: الشيء الذي فعلته هو أنني أخذت هذه العلامات التي ذكرها ابن القيم -رحمه الله تعالى- ونظمت لها نظمًا. ومن المعلوم أن النظم يساعد طالب العلم، ولا سيما من عنده مقدرة على حفظ المنظومات، يساعده على ضبط العلم؛ لأن حفظ النظم أسهل من حفظ النثر، لما فيه من سلاسة وسهولة وعذوبة إذا كان النظم كذلك.

قوله: ولكني نظمت لها نظامًا، به أرجو التنافس في الفضال: أي أردت أن أنافس في هذه الفضائل وبيان هذه الأمور العظيمة التي لأجلها نظمت هذا النظم.

قوله: مع الإقرار بالتقصير فيها: وهذا من دأب أهل العلم والفضل والنبل، يجتهد باستطاعته في تميم العمل وتكميله، وفي كل ذلك يرى نفسه مقصرًا، ومن المشاهد التي ينبغي أن يشهدها العامل كما سيأتي مشهد التقصير، أي أنك مهما أجدت ومهما أتقنت في العمل لا تزال مقصرًا في جنب الله وفي حق الله سبحانه وتعالى عليك، فشهود هذا المشهد، مشهد التقصير، نافع جدًا للعبد ومهم له في المواصلة في الاستقامة والثبات على طاعة الله تبارك وتعالى، بخلاف من أعماله تأتي على التقصير ويرى نفسه من أكمل الناس عملًا، وانظر الفرق بين أهل الكمال والفضل وبين المقصرين:

أهل الكمال والفضل يتمم العمل ويكمله، وهو في الوقت نفسه يرى نفسه مقصرًا.

والمقصر: على العكس من ذلك، يقصر في العمل ويفرط، ويرى نفسه مكملًا ومتممًا للعمل، وربما أيضًا يرى يزكي نفسه.

قوله: وذكر للعقيدة في المقال: أي أنني أتبعت ذكري لهذه العلامات، علامات القلب، بذكر العقيدة، عقيدة أهل السنة والجماعة، المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهو بذكره لهذه العقيدة في هذا الموضع ينبه تنبيهًا عظيم الأهمية ألا وهو أن سلامة القلب لا يمكن أن تكون إلا بالعقيدة السليمة، ولا يمكن أن يكون القلب سليمًا إلا إذا سلم المعتقد وصح واستقام، وكان مستمدًا من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، أما مع فساد المعتقد فإن القلب لا يكون سليمًا، أي سلامة تكون في قلب قائم على اعتقاد الباطل، أو اعتقاد فاسد، أو اعتقاد مخالف للعقيدة المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

إذن: ذكره للعقيدة في هذا المقال، الذي هو علامات صحة القلب، فيه التنبيه على أنه لا يمكن أن يكون القلب سليمًا إلا مع صحة المعتقد وسلامته.

*** المتن ***

علامة صحة للقلب ذكر *** لذي العرش المقدس ذي الجلال

وخدمة ربنا في كل حال *** بلا عجز هنالك أو ملال

ولا يأنس بغير الله طرى *** سوى من قد يدل إلى المعال

ويذكر ربه سرًا وجهرًا *** ويدمن ذكره في كل حال

*** الشرح ***

هذه العلامة الأولى من علامة صحة القلب، ذكر الله سبحانه وتعالى، والمواظبة على ذكره، والإكثار من ذكره جل وعلا، والمحافظة على طاعته سبحانه وتعالى، وألا يفتر من ذكر الله ولا يسأم ولا يمل.

يقول ابن القيم –رحمه الله– في (إغاثة اللهفان): ومن علامات صحة القلب ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

فهذه علامة من علامات صحة القلب، أن يكون بحث هذا القلب ومبتغاه إقامة ذكر الله، ولا يسأم من ذكر الله، ولا يأنس مع أحد من الناس إلا من يعينه على ذكر الله سبحانه وتعالى.

قوله: علامة صحة للقلب ذكر لذي العرش المقدس ذي الجلال: هذه علامة من علامات القلب، العناية بذكر الله، والمداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى، {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً} [الأحزاب: ٤١]، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، فمن علامات صحته ذكر لذي العرش المقدس ذي الجلال.

قوله: المقدس: أي المنزه، فالتقديس التنزيه، المقدس أي عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقات.

قوله: ذي الجلال: أي الموصوف بصفات الجلال والكمال، فجمع قوله: المقدس ذي الجلال. بين النفي والإثبات الذين عليهما قيام المعتقد في باب: الأسماء والصفات، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

قوله: خدمة ربنا في كل حال: المراد بالخدمة هنا الطاعة والامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى، ولم أقف على استعمال لها في المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والمأثور عن السلف، وإنما وقع مثل هذا الكلام فيما بعد عند أهل العلم، والمراد بالخدمة بها الامتثال والطاعة؛ لأن الخادم هو المطيع الممتثل لأمر سيده.

قوله: في كل حال: أي طاعة الله سبحانه وتعالى فيما يأمره به، ويدعوه إلى القيام به، وهذا يشمل فعل الأوامر وترك النواهي.

قوله: بلا عجز هنالك أو ملالِ: أي دون أن يكون من العبد عجز، وفي السنة تعوذ بالله من العجز والكسل، ودون ملال، أي سآمة، دون أن يحصل له سآمة من العمل.

قوله: ولا يأنس بغير الله طرى سوى من قد يدل على المعال: ولا يأنس بغير الله جميعًا، أي لا يأنس بغير الله أي أحد كان، لا يستثنى من ذلك إلا من يعينه على طاعة الله وذكره، فإنه يأنس بهم لما يجده عندهم من معونة الله على طاعة الله سبحانه وتعالى، فأمثال هؤلاء يصحبهم ويلازم رفقتهم، {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف: ٢٨].

قوله: ويذكر ربه سرًا وجهرًا: الأصل في الذكر أن يكون سرًا، {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ} [الأعراف: ٢٠٥]: إلا ما جاء الجهر به، فمراده سرًا أي يذكر الله سبحانه وتعالى بكل أحيانه سرًا، وما جاء الجهر به في الذكر فإنه يجهر به موافقة لهدي النبي الكرم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ويدخل في ذكر الله سبحانه وتعالى جهرًا: تعليم العلم، وتفقيه الناس لدين الله، فإن هذا من ذكر الله سبحانه وتعالى، ومن الإقامة لذكره، كما في الحديث: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: (حلق الذكر)، والمراد بحلق الذكر أي مجالس العلم، التي يبين فيها الحلال والحرام، وتوضح فيها الأحكام، ويعرف الناس بربهم سبحانه وتعالى، وبأسمائه وصفاته، وبأوامره ونواهيه.

قوله: ويدمن ذكره في كل حال: يدمن: أي يواظب على ذكر الله سبحانه وتعالى في كل حال، {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩١]: أي في كل أحوالهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل أحواله، قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنب، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

هذه العلامة الأولى من علامات صحة القلب.

يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتاب (طريق الهجرتين): المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته، وكلما كانت المحبة أقوى، كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل. هذا يوضح أن المراد بالخدمة أي الطاعة والامتثال، فليزن العبد إيمانه ومحبته لله بهذا الميزان، ولينظر: هل هو متلذذ أو متكره لها يأتي بها على السآمة والملل؟ فهذا محل إيمان العبد ومحبته لله.

*** المتن ***

ومنها وهو ثانيها إذا ما * يفوت الورد يوماً لاشتغال**

فيألم للفوات أشد مما * يفوت على الحريص من الفضال**

*** الشرح ***

هذه العلامة الثانية من علامات صحة القلب، أن يألم عند فوات الوِرد، حين يثبت لنفسه وِردًا ثم يفوته، كأن يكون مثلًا له وِرد من الليل يصلي، أو حزب من القرآن، أو نحو ذلك، فإذا فاته يألم لفواته أعظم من تألم الحريص على المال بفواته للربح في ماله؛ لأن الذي هو فيه أعظم، والربح الذي فيه أكبر، فيألم على ألمِا أشد من ألم من فاته ربح المال، أو مكسب من المكاسب الدنيوية.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: ومن علامات صحته أنه إذا فاته ورده، وجد لفواته ألمِا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

قوله: إذا ما يفوت الورد يومًا لاشتغال، فيألم للفوات أشد مما، يفوت على الحريص من الفضال: أي أشد مما يفوت على الحريص على تجارة أو ربح معين، أو مكسب من المكاسب التي يطمع في تحصيلها، يتألم هذا على فوات ورده ألمِا أعظم من ألم ذاك على فوات تحصيله على ذلك الربح.

*** المتن ***

ومنها شحه بالوقت يمضي * ضياعاً كالشحيح ببذل مال**

*** الشرح ***

هذه العلامة الثالثة من علامات صحة القلب، شح صاحبه بالوقت، لحرصه الشديد عليه، فشحه بالوقت من أن يضيع، وأن يذهب سدى بغير فائدة؛ لأن جميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الإنسان وقته، ضاعت مصالحه، وما فات من الوقت لا يستدرك، ولهذا: جاءت السنة بالحث على اغتنام الوقت، واغتنام أيضًا بالأخص وقت الشباب، (اغتنم خمسًا قبل خمس)، بدأها بقوله: (شبابك قبل هرمك)، فهذا كله حث على اغتنام الوقت، وتحذير من تضييعه، وعلامة المقت تضييع الوقت؛ لأن المصالح لا تتحقق إلا بحفظ الإنسان لوقته ورعايته له، وعنايته به.

يقول ابن القيم –رحمه الله-: من علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا، من أشد الناس شحًا بماله ومنعه. يكون شحيح بالوقت من أن يضيع في الأمور التي لا فائدة فيها ولا طائل، فضلًا عن الأمور التي فيها محرمات، من غيبة، ونميمة، وسخرية، واستهزاء، وغير ذلك، شحيح بوقته شحًا أشد من شح البخيل بماله؛ لأنه إذا لم يكن عنده هذا الشح بوقته من أن يضيع وأن يذهب سدى، ضاع عليه وقته، وما ضاع من الوقت لا يمكن أن يستدرك.

فمن علامات صحة القلب: شحه بالوقت من أن يمضي ضائعًا سدى بدون فائدة.

قوله: كالشحيح ببذل المال: أي شحًا أشد من شح الشحيح ببذل ماله، والشحيح هو البخيل.

*** المتن ***

وأيضاً من علامته اهتمام	***	بهمّ واحد غير انتحال
فيصرف همّه لله صرفاً	***	ويترك ما سواه من المقال

*** الشرح ***

هذه العلامة الرابعة من علامات صحة القلب، يقول ابن القيم –رحمه الله– في (إغاثة اللهفان): ومن علامات صحته أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

والناظم قرر ذلك بقوله: وأيضًا من علامته، اهتمام بهم واحد.

قوله: وأيضًا من علامته: أي صحة القلب.

قوله: بهم واحد: أي أن يكون همه همًا واحدًا.

قوله: غير انتحال: أي لا يكون ذلك مجرد دعوى؛ لأن من السهل على كل أحد أن يقول: إن همي هو واحد، وهو نيل رضا الله. هذا انتحال إن لم يكن حقيقة قلبه كذلك، فالانتحال سهل، والدعاوى إذا لم يقم عليها بينات فأهلها أدعياء، فلا يكن ذلك مجرد انتحال، بل يكون همه همًا واحدًا حقيقة وصدقًا.

قوله: فيصرف همه لله صرفًا، ويترك ما سواه من المقال: أي يجعل همه همًا وحدًا، وهو أن يكون في الله سبحانه وتعالى، وقد جاء في المسند وغيره، عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة).

*** المتن ***

وأيضاً من علامته إذا ما *** دنا وقت الصلاة لذي الجلال
وأحرم داخلاً فيها بقلب *** منيب خاضع في كل حال
تناءى همه والغم عنه *** بدنيا تضمحل إلى زوال
ووافى راحة وسرور قلب *** وقرة عينه ونعيم بال
ويشتد الخروج عليها منها *** فيرغب جاهداً في الابتهال

*** الشرح ***

هذه العلامة الخامسة من علامات صحة القلب، يقول ابن القيم –رحمه الله-: ومن علامات صحته أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، وتشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه وقرة عينه وسرور قلبه. وفي الحديث: يقول عليه الصلاة والسلام: (أرحنا بالصلاة يا بلال)، ويقول: (جعلت قرة عيني في الصلاة).

فمن علامات صحة القلب هذه المكانة العظيمة للصلاة، تعظيمًا لها، ومعرفة بقدرها، وإدراكًا لمكانتها، ورعاية لها، وأنسًا بمجيئها، ودخول وقتها، وحسن إقبال على الله سبحانه وتعالى فيها.

قوله: وأيضًا من علامته إذا ما دنا وقت الصلاة لذي الجلال: دنا: أي قرب وقت الصلاة وأقيمت.

قوله: وأحرم داخلًا فيها بقلب منيب خاضع في كل حال: أي تكون حاله في دخوله للصلاة، هذه الحال، قلب منيب خاضع.

قوله: منيب: هو الراجع إلى الله سبحانه وتعالى، المقبل على طاعته ونيل رضاه.

قوله: خاضع: أي ذليل منكسر بين يدي الله سبحانه وتعالى، خاشع له سبحانه في صلاته، خشوعًا يجمع بين خشوع القلب والجوارح.

قوله: تناءى همه والغم عنه بدنيا تضمحل إلى زوال: أي في دخوله للصلاة أمور الدنيا وشواغلها وهمومها وغمومها كلها تنزاح عنه، ويكون مقبلًا على صلاته وصلته بربه تبارك وتعالى، وأنسه بعبادة ربه ومولاه مطمئنًا خاشعًا.

قوله: ووافى راحة وسرور قلب، وقرة عينيه ونعيم بال: أي يجد هذه الأشياء في الصلاة، فرق بين من يصلي وهو يجد هذه المعاني في صلاته، وبين من يصلي وكأنه واقف على جمر متململ، ينتظر متى تنقضي هذه الصلاة؟ ومتى يخلص منها؟ ولسان حاله: أرحنا من الصلاة، وليس: (أرحنا بالصلاة)، فرق بين هذا وذاك، بين مصل متململ متضجر، حتى إن بعضهم إذا أطال الإمام شيئًا قليلًا في صلاته نظر في ساعته متململًا متضجرًا، ففرق بين من يصلي وهو يوافي في صلاته الراحة وسرور القلب، وقرة العين، ونعيم البال، وبين من يصلي وهو قلق ومتضجر ويريد الراحة والخلاص من هذه الصلاة.

ولهذا: الأول يشتد عليه الخروج من صلاته، إذا انتهت الصلاة اشتد عليه الأمر؛ لأنه خرج من لذة وقرة عين، وراحة بال، فيشتد عليه الخروج منها، ويتمنى أن لو طالت أيضًا.

قوله: ويشتد عليه الخروج منها: أي يشتد عليه الخروج من الصلاة، لما يجد فيها من لذة وراحة وقرة عين، فيرغب جاهدًا في الابتهال، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [الشرح: ٧، ٨].

قوله: الابتهال: بقطع الهمزة في الابتهال للضرورة الشعرية.

بينما الآخر: إذا انتهت الصلاة اشتد فرحه بالخروج منها، والخلاص من هذا الحمل العظيم الذي على كاهله، يريد أن يتخلص منه بأسرع وقت.

فإذن: هذه علامة من علامات صحة القلب، وسبحان الله تبقى الصلاة ميزان يومي يعرف من خلاله العبد مكانة هذا الدين عنده، ومنزلة تعظيم رب العالمين في قلبه، ميزان يومي يزن به نفسه، وإذا حضر وقت الصلاة ظهر للعبد من نفسه حال هذا الدين عنده؛ لأن حظ العبد من الدين بحسب حظه من الصلاة، فالصلاة ميزان ومحك يومي يبين للإنسان ويعرف الإنسان من نفسه مكانة هذا الدين وتعظيم رب

العالمين في قلبه، فهذه علامة عظيمة جدًا، تتكرر في اليوم خمس مرات في هذه الصلوات الخمس المفروضة: صلاة الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

المجلس: ٢

لا نزال مع هذه المنظومة الماتعة النافعة للإمام العلامة سليمان بن سحمان -رحمه الله تعالى- في علامات صحة القلب، وعرفنا أن هذه الأبيات في هذه المنظومة نظم فيها -رحمه الله تعالى- ما قرره وبينه العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في (إغاثة اللهفان) عن علامات صحة القلب، ودلائل وشواهد سلامته، وعرفنا أن القلوب ثلاثة: قلب سليم، وقلب ميت، وقلب مريض، وما ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالى- من تقريرات نافعة في بيان كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة.

ومما يُذكّر به في هذا المقام: أهمية دعاء الله سبحانه وتعالى بأن يمن على العبد بسلامة القلب، وفي الوقت نفسه مجاهدة النفس على صلاح القلب وزكاته، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

وأما الدعاء فقد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أدعية كثيرة تتعلق بالقلب وصلاحه، ومن هذه الدعوات ما ثبت في الطبراني وغيره عن شداد بن أوس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (إذا اكتنز الناس الدرهم والدينار فاكتنز هؤلاء الكلمات، اللهم إني أسالك: الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسالك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، وأسالك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسالك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسالك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب)، فهذه دعوات عظيمة، بل كنز ثمين، ينبغي على المسلم أن يظفر بهذا الكنز، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (فاكتنز هؤلاء الكلمات)، أن يظفر بهذا الكنز الثمين العظيم بحيث يدعو بهذه الدعوات المباركات مجاهدًا نفسه في الوقت نفسه على تحقيقها وتتميمها والقيام بها.

وهذه المنظومة التي بين أيدينا فيها حديث نافع ومفيد في علامات صحة القلب، ووصلنا إلى العلامة السادسة من علامات صحة القلب، وأدرج تحت هذه العلامة مشاهد ستة عظيمة جدًا ينبغي التنبه لها، وهي مشاهد ينبغي على المسلم أن يشهدها في كل الطاعات، وجميع العبادات؛ لأن شهودها يعني تمام العمل وكماله.

*** المتن ***

وأيضاً من علامته اهتمام *** بتصحيح المقالة والفعال
وأعمال ونيات وقصد *** على الإخلاص يحرص بالكمال
أشد تحرصاً وأشد هماً *** من الأعمال ثمة لا يبال
بتفريط المقصر ثمَّ فيها *** وإفراط وتشديد لغال
وتصحيح النصيحة غير غش *** يمازج صفوها يوماً بحال
ويحرص في اتباع النص جهداً *** مع الإحسان في كل الفعال
ولا يصغي لغير النص طرى *** ولا يعبأ بآراء الرجال
فست مشاهد للقلب منها *** علامات عن الداء العضال
ويشهد منة الرحمن يومًا *** بما أسدى عليه من الفضال
ويشهد منه تقصيرًا وعجزًا *** بحق الله في كل الخلال
فقلب ليس يشهدها سقيم *** ومنكوس لفعل الخير قالِ

*** الشرح ***

هذه العلامة السادسة من علامات صحة القلب.

قوله: وأيضًا: أي من علامات صحة القلب، وهي العلامة السادسة.

قوله: اهتمام بتصحيح المقالة والفعال وأعمال ونيات وقصد على الإخلاص: أي تصحيح هذه الأشياء المذكورات على الإخلاص، أن يصححها بحيث تكون خالصة لله:

الأمر الأول: المقالة. أي أقوال العبد، بحيث تكون أقواله كلها خالصة لله، لا يبتغي بها إلا الله، وهذا يتناول جميع الأقوال، جميع ما يصدر من لسانه، كالأذكار التي يأتي بها، والدعوات، والدعوة إلى الله، ونشر العلم وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأمور التي هي أقوال للمرء تصدر من لسانه يصححها على الإخلاص، فتكون أقواله خالصة لله، لا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: الفعال وأعمال. والفعال هي الأعمال، وقد يعطف على الشيء معناه أو ما يرادفه ولا سيما في النظم، قد يقتضي مثل ذلك، فالأفعال هي الأعمال، أي أعمال الإنسان وفعاله، ما يصدر منه من

أعمال، ينبغي أن تصدر منه خالصة لله، وهذا يتناول أعماله كلها، من بر، وصلة، وصدقة، وصلاة، وصيام، وحج، وغير ذلك، تكون هذه الأعمال خالصة لله لا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث: نيات وقصد. هذا أيضًا أمر واحد، فالنية هي القصد ومحلها القلب، فيصلح نيته.

إذن: ذكر أمور ثلاثة تصلح بالإخلاص، وهي الأقوال والأعمال والنيات، والإيمان الذي خلق الله سبحانه وتعالى الخلق لأجله، وأوجدهم لتحقيقه هو مجموع هذه الثلاث، الإيمان أقوال وأعمال ونيات، كما قال السلف -رحمهم الله-: الإيمان قول وعمل ونية. فالإيمان هذا هو، أمور ثلاثة: أقوال وأعمال ونية، فهذه الأمور من علامة صحة القلب، أن يجتهد في تصحيح أقواله وأعماله ونياته على الإخلاص، بأن تكون خالصة لله سبحانه وتعالى لا يبتغي بها إلا وجه الله، اهتمام بتصحيح هذه الأشياء على الإخلاص ليس وحده، وإنما وعلى أمور أخرى يأتي ذكرها، مثل قوله: وتصحيح النصيحة. ثم بعد ذلك يحرص في اتباع النص مع الإحسان، فسيذكر أمور كلها تصلح فيها النيات والأعمال والأقوال، بحيث تكون النيات والأعمال والأقوال خالصة، وقائمة على النصيحة، ويحرص فيها على الاتباع، ويجتهد فيها في الإحسان وغير ذلك.

قوله: على الإخلاص: هذا هو المشهد الأول المشاهد الستة التي ينبغي على العبد أن يشهدها في كل عبادة وفي كل طاعة.

المشهد الأول: الإخلاص. ولهذا نضع رقم واحد على كلمة الإخلاص.

قوله: يحرص بالكمال أشد تحرصًا وأشد همًا من الأعمال: أي يحرص بالكمال في أعماله وأفعاله ونياته، وتكون همته متجهة على تكميل العمل وتصحيحه بالإخلاص لله تبارك وتعالى أشد من همته في الإتيان بالعمل؛ لأن العمل دون قيام على الإخلاص لا ينتفع به، الإخلاص هو الأساس لقبول العمل، فإذن ينبغي أن يكون اهتمام العبد بإخلاص العمل أشد من اهتمامه بالعمل؛ لأن الإخلاص أساس قبول الأعمال.

قوله: ثمة لا يبال بتفريط المقصر ثمَّ فيها، وإفراط وتشديد لغال: أي إذا كانت أعماله حتى وإن قلت، إذا قامت على الإخلاص وصدق فيها مع الله، ونصح، وأتى بهذه الضوابط التي سيأتي ذكرها، حتى لو كانت الأعمال قليلة، بعد ذلك لا يبالي بأعمال الآخرين التي إما مثلًا تجنح إلى التقصير، أو تجنح

إلى الإفراط والتشديد، والناس في العبادات ثلاثة أقسام: إفراط، وتفريط، ووسط، وخيار الأمور أوساطها، لا تفريطها، ولا إفراطها.

قوله: بتفريط المقصر: أي تقصيره بالنقصان من العمل والإخلال فيه، ويأتي عمله ناقصًا قاصرًا.

قوله: وإفراط وتشديد لغال: الإفراط: هو تجاوز الحد بالغلو والزيادة في العمل، والحق وسط بين الإفراط والتفريط، وبين الزيادة والنقصان، وبين الغلو والجفاء، الحق قوام بين ذلك، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البقرة: ١٣]، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [الفرقان: ٦٧]: أي وسطًا، لا غلو ولا جفاء.

إذن: هذا البيت فيه بيان الوسطية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط.

قوله: وتصحيح النصيحة: هذا هو المشهد الثاني من المشاهد التي ينبغي أن يشهدها العبد في كل طاعة وكل قربى يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها.

ومن المعلوم أن النصيحة تكون لله، وتكون لكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والنصيحة لله تكون بحسن الإقبال على طاعة الله قبولًا وخشوعًا وذلًا وانقيادًا وامتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

قوله: غير غش، يمازج صفوها يوماً بحال: أي يحرص أن تكون أعماله قائمة على النصيحة دائمًا بحيث لا يمازجها في أي يوم من الأيام، أو في وقت من الأوقات غش، أو أي أمر خلاف النصيحة.

قوله: ويحرص في اتباع النص جهداً: هذا هو المشهد الثالث، وهو مشهد المتابعة، والتأسي بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، أي يجاهد نفسه في عباداته كلها، وأعماله جميعها على التأسي بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام وتحكيم كلام الله وكلام رسوله، والرد إلى كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وكما أن الأعمال لا تقبل إذا فقدت الإخلاص، فإنها كذلك لا تقبل إذا فقدت المتابعة، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد): أي مردود على صاحبه غير مقبول منه، قال الله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض:

أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي: وما أخلصه وأصوبه؟. قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

إذن: يحتاج العبد مع إخلاصه ونصحه أن يجاهد نفسه على الاتباع والتأسي بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ليس للمرء أن يعبد الله بما شاء، بل يعبد الله بما شرع، وبما جاء عن رسوله الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قوله: مع الإحسان في كل الفعال: هذا هو المشهد الرابع، مشهد الإحسان، والإحسان الإتقان والإجادة، فالإحسان في العمل أن يأتي بالعمل متقنًا، بحيث يحرص العامل على تكميل العمل وتتميمه، والإبعاد بالعمل عن كل ما ينقصه، والله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، والإحسان في عبادة الله هو: (أن تعبد الله كأنك تراه)، وهذا أعلى ما يكون في الإتقان في العمل، (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، أعلى ما يكون تكميلًا للعمل، وتتميمًا له، وإتقانًا في القيام به، أن يكون العامل في عبادته لله يعبد الله كأنه يرى الله، وهذه رتبة علية ورفيعة، ولهذا لما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، قال: أخبرني عن الإحسان. قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، أن تعبد الله عبادة متقنة تامة كاملة، بحيث تكون في وقوفك بين يدي الله، وخشوعك لله، وخضوعك لجنابه كأنك ترى الله.

قوله: في كل الفعال: أي في كل العبادات والقربات التي تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها.

قوله: ولا يصغي لغير النص طرى، ولا يعبأ بآراء الرجال: هذا يتعلق بمسألة الاتباع التي هي المشهد الثالث، فيحرص على اتباع النص جهدًا، أي يجاهد نفسه دائمًا على اتباع النص، كلام الله وكلام ورسوله.

قوله: لا يصغي لغير النص طرى: أي دائمًا وأبدًا لا يصغي إلا للنص، لا يكون استماعه وإصغائه إلا للنص، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: طرى: أي جميعًا.

قوله: لا يعبأ بآراء الرجال: أي التي جاءت مصادمة للنصوص وكلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وآراء الرجال كثيرة، لكن العمدة هو كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

من التطبيق العملي في هذا المعنى: قصة ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- لما ذكر لنفر من أهل اليمن سنة من السنن تتعلق بتقبيل الحجر الأسود، فقال: أرأيت إن زوحمت عليه؟. أو كلمة نحوها، قال: دعَ رأيت في اليمن. فدع عنك آراء الرجال، يعني إذا جاءك النص عول عليه واعتمده، ولا تلتفت إلى غيره من الآراء، ولو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من ظاهره، إذا كانت المسألة بتفكير الإنسان وعقله، لكن الأمر ليس بالرأي، الأمر بالنص المعتمد.

وليس إهمالًا للآراء، وإنما هذا تحذير من الآراء الباطلة والآراء المصادمة للنصوص، ولينظر في هذا ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- من تقرير نافع وواسع في مقدمة (إعلام الموقعين)، حيث تحدث على الرأي والموقف الصحيح منه، وأن الرأي لا يذم مطلقًا، وإنما يذم الرأي المصادم للنصوص، أو الرأي الذي أنكرت به الصفات، أو الرأي الذي أحدثت به البدع، أو الرأي الذي يقدم على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: فست مشاهد للقلب منها: فهذه ست مشاهد، وبقي منها مشهدان يأتي ذكرهما.

قوله: علامات عن الداء العضال: أي علامات على سلامة القلب ونجاته من الداء العضال الذي هو مرض القلب وعطبه.

قوله: ويشهد منة الرحمن يومًا بما أسدى عليه من الفضال: هذا المشهد الخامس أن يشهد المنة، وهذا في كل طاعة تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها تشهد منة الله عليك، وأنه لولا فضل الله عليك لما صليت، لولا فضل الله عليك لما حججت، لولا فضل الله عليك لما تصدقت، لولا فضل الله عليك لما بررت والديك، وهذا المشهد عظيم النفع؛ لأنه يطرد عن الإنسان العجب، لا يصاب بإذن الله سبحانه وتعالى

بالعجب بالعمل؛ لأنه كلما عمل عملًا شهد أن هذا فضل الله عليه، لولا أن الله تفضل عليَّ ما قمت بهذا العمل، ولا حصلت مني هذه الطاعة، ولا وجدت مني هذه العبادة، مثل ما كان الصحابة –رضي الله عنهم– يقولون في رجزهم: لولا الله ما اهتدينا، ولا صمنا، ولا صلينا. قال الله تبارك وتعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ٨٣]، وقال: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} [النور: ٢١]، وقال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، ويقول: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٧، ٨].

قوله: أسدى عليه: أي منَّ وتفضل.

قوله: من الفضال: أي من النعم والعطايا ومن أعظم النعم هداية الله لعبده لهذا الدين ولزوم الصراط المستقيم، والمحافظة على طاعة رب العالمين، فهذه أعظم النعم، وهي منة إلهية، فضلًا من الله ونعمة، فيشهد المنة، وهذا هو المشهد الخامس.

قوله: ويشهد منه تقصيرًا وعجزًا بحق الله في كل الخلال: هذا هو المشهد السادس شهود التقصير، مهما كمل العمل ورأى من نفسه أنه تممه عليه أن يشهد في الوقت نفسه أنه مقصر في حق الله، لا ينظر إلى نفسه يومًا من الأيام أن عمله كامل، إخلاصًا وصدقًا ونصحًا، فإن من علامة المؤمن الصادق رؤية التقصير دائمًا، وخوف عدم القبول، كما قال الله تعالى في صفة المؤمنين الكُمّل: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون: ٦٠]: أي خائفة، خائفة من ماذا؟ يعطيكم احتمالين في معنى الآية:

الأول: أي يرتكبون ما يرتكبونه من المعاصي والذنوب ويخافون أن يعاقبهم الله عليها. هذا احتمال.

الثاني: يقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات ويخافون أن لا يقبلها الله منهم لوجود تقصير أو خلل فيها.

أي المعنيين المراد بهذه الآية؟ جاء في المسند للإمام أحمد أن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية، قالت: يا رسول الله: أهو الرجل يسرق ويقتل ويزني ويخاف أن يعذب؟. هذا هو الاحتمال الأول في معنى الآية، قال: (لا، يا ابنة الصديق)، إذن: ما معناها؟ قال: (ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل).

ولهذا: يؤثر عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أنه قال: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لكان أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

وعبد الله بن أبي مليكة يقول: أدركت أكثر من ثلاثين صاحبيًا كلهم يخاف النفاق على نفسه.

ولهذا يقول الحسن: إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن. المؤمن يحسن في العمل ويخاف في الوقت نفسه أن لا يقبل منه العمل، والمنافق يسيء في العمل ويرى أن عمله من أحسن الأعمال.

فإذن: شهود التقصير في حق الله سبحانه وتعالى، هذا مشهد عظيم جدًا ينبغي أن يشهده العبد في كل طاعة، في صلاته، في صيامه، في حجه، في طلبه للعلم، في تعليمه للعلم، في دعوته للناس، إلى غير ذلك يشهد نفسه دائمًا مقصر وأن حق الله أعظم من هذا الذي يفعله وأكبر.

قوله: منه: أي العبد من نفسه.

قوله: تقصيرًا وعجزًا بحق الله في كل الخلال: أي في جميع الأعمال التي يقدمها يشهد نفسه مقصرًا في حق، وأن حق الله أعظم من هذا الذي قام به أو قدمه.

قوله: فقلب ليس يشهدها سقيم: أي أن هذه المشاهد إن لم يشهدها القلب فهو قلب سقيم فيه من المرض ما فيه.

قوله: ومنكوس لفعل الخير قالِ: قالي: أي مبغض لفعل الخير؛ لأن هذه أسس فعل الخيرات التي عليها تقوم هذه المشاهد الستة العظيمة.

وكما أشرت، هذه المشاهد ينبغي أن يشهدها العبد في كل طاعة من صلاة أو صيام أو حج أو صدقة أو غير ذلك من الطاعات.

لكننا نقف وقفة مفيدة جدًا مع تقرير للإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- لتطبيق هذه المشاهد الستة في الصلاة، بحيث إن طبقها العبد وجد فعلًا في صلاته راحة له، وقرة عين، وأصبحت صلاته قرة عين له وراحة، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول: (جُعلت قرة عيني في الصلاة)، ويقول: (أرحنا بالصلاة يا بلال)، فمتى ترتقي الصلاة وتصل إلى هذه المرتبة بحيث تكون قرة عين للعبد وراحة لقلبه؟ يبين -رحمه الله تعالى- أن ذلك إنما يتحقق بشهود هذه المشاهد الستة، بينها -رحمه الله تعالى- في (رسالة إلى أحد إخوانه):

المشهد الأول: مشهد الإخلاص. وهو أن يكون الحامل عليها -أي الصلاة- والداعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبته له، وطلب مرضاته، والقرب منه، والتودد إليه، وامتثال أمره بحيث لا يكون الباعث له عليها حظ من حظوظ الدنيا البتة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى محبة له، وخوفًا من عذابه، ورجاء لمغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح. وهو أن يفرغ قلبه لله فيها، بحيث ما يكون في القلب شواغل أخرى أو صوارف، ويستفرغ جهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهرًا وباطنًا، فإن الصلاة لها ظاهر وباطن: فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها الخشوع والمراقبة وتفريغ القلب لله، والإقبال بكليته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره.

فهذا الذي هو الخشوع والمراقبة والإقبال بالقلب على الله، بمنزلة الروح للصلاة، والأفعال بمنزلة البدن، فإذا خلت من الروح -أي الصلاة- كانت كبدن لا روح فيه.

ثم يقول -رحمه الله-: أفلا يستحي العبد أن يواجه سيده بمثل ذلك؟ ولهذا تلف كما يلف الثوب الخلق، ويضرب بها وجه صاحبها وتقوم ضيعك الله كما ضيعتني، والصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان كنور الشمس حتى تعرض على الله فيرضاها ويقبلها وتقول: حفظك الله كما حفظتني.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء. وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويصلي كما كان يصلي صلوات الله وسلامه عليه، ويعرض عما أحدث الناس في

الصلاة من الزيادة والنقصان والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء منها، ولا عن أحد من أصحابه.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان. وهو مشهد المراقبة، وهو (أن تعبد الله كأنه يراك)، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سموات مستويًا على عرشه يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماؤه وصفاته، ويشهد قيومًا، حيًا، سميعًا، بصيرًا، عزيزًا، حكيمًا، آمرًا، ناهيًا، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، ولا أقوالهم، ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء، والإجلال، والتعظيم، والخشية، والإنابة، والتوكل، والخضوع لله سبحانه، والذل له، ويقطع الوساوس، وحديث النفس، ويجمع القلب والهمة على الله، فحظ العبد من القرب على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

أي مستويين في الركوع والسجود والقيام، لكن ما قام في قلب الأول من إحسان جعل صلاته أفضل من الآخر كالفرق بين السماء والأرض.

المشهد الخامس: مشهد المنة. -أي منة الله عليك بالتوفيق للقيام بهذا العمل، وتفضله عليك، وأنه لولا فضل الله عليك لما قمت به- وهو أن يشهد أن المنة لله سبحانه كونه أقامه في هذا المقام، وأهّله له، ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته -أي طاعته-، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: والله: لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا. قال الله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، هو الذي جعل المسلم مسلمًا، والمصلي مصليًا، كما قال الخليل عليه السلام: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [البقرة: ١٢٨]، وقال: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم: ٤٠].

لا يمكن أن يكون العبد من أهل الصلاة ومن المحققين لها والمتممين إلا إذا جاء له الله كذلك، ولهذا العبد يرى الإحسان ويسمع به، ويقرأه في الكتب، لكن بلوغه لذلك لا يتحقق إلا أذا جاء له الله كذلك، فالأمر بيد الله، نسأله بمنه وفضله أن يحقق لنا ذلك فضلًا منه وتكرمًا، لا حول ولا قوة إلا به، جل في علاه.

وقد قال أحد السلف من التابعين: لو أُخرج قلبي من صدري وجعل في يدي اليسرى، وجيء بالحسنات كلها، وجعلت في يدي اليمنى، لم استطع أن أجعل شيئًا منها في قلبي إلا أن يكون الله هو الذي يضعه.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: فالمنة لله وحده، في أن جعل عبده قائمًا بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه، قال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [الحجر: ٥٣]، وقال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٧، ٨].

ثم يكمل ابن القيم فيقول: وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلما كان العبد أعظم توحيدًا كان حظه من هذا المشهد أتم، وفيه من الفوائد أنه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل، ورؤيته، فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المانّ به، الموفق له، الهادي إليه، شغله شهود ذلك عن رؤيته، والإعجاب به، وأن يصول به على الناس، فيُرفع من قلبه فلا يعجب به، ومن لسانه فلا يمن به، ولا يتكثر به، وهذا هو شأن العمل المرفوع.

وهذه فائدة ثمينة، العمل المرفوع عند الله إذا قام به العبد يُرفع من قلبه، وإنما قلبه مشغول بشيء آخر، ليس مشغولًا بأنني فعلت كذا، وقمت بكذا، وتصدقت بكذا، وصليت كذا، هذه أعمال قام بها، واجتهد في تكميلها، ورفعت من قلبه، يرجو ثوابها يوم يلقى الله، لكن يفكر في ذنوبه، في تقصيره، في خطاياه، في حاله، فيما يستقبل من أمره، أما العمل الذي قام به إذا قام به على الإحسان والإتقان يرفع من قلبه، لا يبقى القلب مشتغلًا به، معجبًا به، يرى العمل ويتكثر به على الناس ونحو ذلك، فلا يعجب به.

س: ما معنى يصول به على الناس؟.

ج: أي يقول مثلًا: أنا الذي فعلت كذا، وأنا الذي أصلحت كذا، وأنا الذي قمت بكذا، فإذا شهد المنة انكسرت هذه الأمور، ابتعدت عن القلب؛ لأنه هذا فضل الله عليه، ومنة الله عليه، ولولا أن الله تفضل عليه بذلك لما كان، فبدل أن يشغل القلب بالعجب، يشغل بالحمد والشكر، حمد المنعم، وشكره سبحانه وتعالى.

قال: ومن فوائده -أي شهود المنة-: أن يضيف الحمد إلى وليه، ومستحقه، فلا يشهد لنفسه حمدًا، بل يشهده كله لله، كما يشهد النعمة كلها منه، والفضل كله له، والخير كله في يده، وهذا من تمام التوحيد، فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده، فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدًا، وإذا صار لقلبه مشهدًا أثمر له من المحبة، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته، ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا البتة، وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدودًا، وطريق الوصول إليه عنه مسدودًا، بل هو كما قال الله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣].

المشهد السادس: مشهد التقصير[١]. وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد، وبذل وسعه، فهو مقصر وحق الله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابل به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأن عظمته وجلالته سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بها، وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالإجلال لهم، والتعظيم، والاحترام، والتوقير، والحياء، والمهابة، والخشية، والنصح، بحيث يفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فملك الملوك، ورب السموات والأرض أولى أن يعامل بذلك، بل بأضعاف ذلك، وإذا شهد العبد من نفسه، أنه لم يوفِ ربه في عبوديته حقه، ولا قريبًا من حقه، علم تقصيره، ولا يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه.

ولهذا شرع لنا بعد الانتهاء من الصلاة أن نستغفر ثلاثًا، {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ} [البقرة: ١٩٩]، فالعبد يختم عمله بالاستغفار، مجالسه يختمها بالاستغفار، حتى مجالس

---

[١] لاحظ: مشهد المنة، إذا عمل العمل شهد المنة، والعمل نفسه يرفع عن القلب، وإنما يشهد بدل العمل المنة من الله بالعمل، فيحمد الله، ثم يدخل في هذا المشهد العظيم وهو مشهد التقصير.

العلم، (سبحانك الله أما بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، وهذا ينشأ عن شهود العبد تقصيرًا في العمل، فيستغفر الله سبحانه وتعالى.

يقول: ولا يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه إلى أن يغفر له العبودية، ويعفو عنه فيها أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثوابًا وهو لو وفاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية، فإن عمل العبد وخدمته لسيده مستحق عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجر على عمله وخدمته لعده الناس أحمق وأخرق، هذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة، وهو عبد الله، ومملوك على الحقيقة من كل وجه، فعمله وخدمته مستحقة عليه بحكم كونه عبده، فإذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضل ومنة وإحسان إليه، لا يستحقه العبد عليه بعد، فإذا أراد الله أن يرحم عبده، وهبه نعمه عليه، وغفر له سيئاته، وضاعف له حسناته، وهذا ثابت عن أنس، وهو أدل شيء على كمال علم الصحابة بربهم وحقوقه عليهم، كما أنهم أعلم الأمة بنبيهم وسنته ودينه، فإن في هذا الأثر من العلم والمعرفة ما لا يدركه إلا أولي الأبصار، العارفون وأسمائه وصفاته، ومن هنا يفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو داود والإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت، وحذيفة وغيرهم: (إن الله لو عذب أهل السموات، وأهل أرضه...) -أي لم يخرج ذلك عن كونه عدلًا فيه-، قال: ومن هنا يفهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يدخل أحد منكم الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟. قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، وقال أنس بن مالك -رضي الله عنه-: يخرج للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه حسناته، وديوان فيه سيئاته، وديوان النعم التي أنعم الله عليه بها، فيقول الرب لنعمه: (خذي حقك من حسنات عبدي)، فيقوم أصغرها، فيستنفذ حسناته، ثم تقول: وعزتك: ما استوفيت حقي.

على كل حال: يرجع إلى كلام ابن القيم بتمامه في (رسالته إلى أحد إخوانه)، وهذه الرسالة سبق أن عقدنا فيها مجالس عديدة في الكلام على فوائدها العظيمة، وما قرر فيها ابن القيم -رحمه الله تعالى- من تقريرات متينة نافعة، والفضل في ذلك أولًا وآخرًا لله وحده لا شريك له، هو وحده الموفق والمعين، والهادي إلى سواء السبيل.

المجلس: ٣

لا نزال مع هذه المنظومة النافعة الماتعة المفيدة للعلامة سليمان بن سحمان -رحمه الله تعالى- والتي نظم فيها علامات صحة القلب مما قرره ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه: (إغاثة اللهفان)، وعرفنا أن الناظم -رحمه الله تعالى- بعد أن أنهى نظمه لتلك العلامات على صحة القلب أتبع ذلك بتقرير مفيد لعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وعرفنا أيضًا: أن نظمه للمعتقد في هذا الموضع فيه تنبيه إلى أن العقيدة الصحيحة المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هي الأساس والعمدة في صلاح القلب؛ إذ لا يمكن أن يصلح قلب بدون اعتقاد صحيح، فالاعتقاد لصلاح القلب وصلاح العمل كالأساس للبنيان، وقد قال الله تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤]، فإذا لم يصلح الأصل، كيف يطيب الفرع؟! وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (ألا أن في الجسد مضغة إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)، فالناظم -رحمه الله تعالى- شرع في تقرير المعتقد بعد بيانه لعلامات صحة القلب.

*** المتن ***

فإن رمت النجاة غدًا وترجو *** نعيمًا لا يصير إلى زوال
نعيم لا يبيد وليس يفنى *** بدار الخلد في غرف عوال
فلا تشرك بربك قط شيئاً *** فإن الله جل عن المثال
إله واحد أحد عظيم *** عليم عادل حكم الفعال
رحيم بالعباد إذا أنابوا *** وتابوا من متابعة الضلال
شديد الانتقام بمن عصاه *** ويصليه الجحيم ولا يبال

*** الشرح ***

هذا وما بعده كله تقرير للمعتقد الحق المستمد من كتاب الله سبحانه وتعالى.

قوله: فإن رمت النجاة غدًا: رمت: أي طلبت ورجوت لنفسك النجاة غدًا، أي يوم تلقى الله سبحانه وتعالى وتقف بين يديه.

قوله: وترجو نعيمًا لا يصير إلى زوال: أي إن كنت تطمع أن تكون من الناجين يوم القيامة، ومن الفائزين أيضًا بثواب الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم العظيم، فعليك بالعناية الدقيقة بإصلاح المعتقد وإقامة الإعمال كلها على توحيد الله وإخلاص الدين له.

قوله: النجاة: أي النجاة من النار، وسخط الله سبحانه وتعالى.

فهنا ذكر النجاة، وذكر في الوقت نفسه الفوز بالثواب، وترجو نعيمًا لا يصير إلى زوال، ترجو الفوز برضا الله، والفوز بجنته، ونعيمه سبحانه وتعالى.

قوله: نعيم لا يبيد وليس يفنى، بدار الخلد في غرف عوال: إذا كنت ترجو لنفسك ذلك النعيم الذي لا ينفد، أي الذي يبقى ويدوم أبد الآباد، لا يحول ولا يزول، كما قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً} [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]، وقال: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦]، فمن كان يرجو هذا النعيم فعليه بالعناية بإصلاح المعتقد، والابتعاد عن الإشراك بالله سبحانه وتعالى، وهذا هو الأساس الذي يبنى عليه الدين كله.

وقد جاء في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام فيما كان يقوله في صلاته قبل أن يسلم: (وأسالك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع)، فسأل الله سبحانه وتعالى النعيم الذي لا ينفد، أي الذي يبقى ويدوم، وهو نعيم الجنة.

قوله: فلا تشرك بربك قط شيئاً: أي احذر الشرك أشد الحذر، وجانبه أشد المجانبة، فلا تشرك بربك أي شيء كان، فإن الشرك أظلم الظلم، وأكبر الجرم، وهو الذنب الذي لا يغفر، كما قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، وقال الله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ

(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [فاطر: ٣٦، ٣٧]: {لِلظَّالِمِينَ}: أي المشركين الكافرين.

قوله: شيئًا: جاءت نكرة في سياق النهي في قوله: لا تشرك. فجاءت نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، بمعنى أي شيء كان، احذر الشرك كله، قليله وكثيره، دقيقه وجليله، احذره أشد الحذر.

قوله: فإن الله جل عن المثال: فإن الله تنزه وتقدس عن أن يُجعل نظير له ومثيل وشريك يدعى معه، وتصرف له العبادة، ويتقرب إليه بالقربات التي هي لا يتقرب بها إلا إلى الله سبحانه وتعالى جل وتنزه عن ذلك، كما قال الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١، ٢٢]، وقال الله تعالى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، وقال تعالى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وتنزيه الله في هذا المقام، مقام النهي عن الشرك، والتحذير من عبادة غير الله، يأتي في القرآن كثيرًا في آيات عديدة، منها على سبيل المثال قول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]: فنزه نفسه عن المثال وعن النظير وعن الشريك وعن الند.

قوله: إله واحد أحد عظيم عليم عادل حكيم الفعال: هذه أسماء وصفات ساقها -رحمه الله تعالى- في مقام تقرير توحيد العبادة؛ لأن هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى لله تبارك وتعالى علم العبد بها يستوجب إفراد الله بالعبادة، وإخلاص الدين له، وعدم اتخاذ الشركاء والأنداد، والأمثال والنظراء.

قوله: إله: هذا اسم من أسماء الله الحسنى الإله، وهو بمعنى الله، ومعنى الإله أي المعبود؛ لأن التأله التعبد، والإله هو المعبود، ومعنى لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله، فالإله هو المعبود، فالله سبحانه

وتعالى هو الإله، أي هو المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢].

قوله: واحد أحد: وكلاهما اسمان لله جل وعلا، أما الواحد فجاء في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى في قصة يوسف: {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩]، والأحد في سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: ١- ٤]، فالواحد والأحد اسمان لله سبحانه وتعالى، وهما اسمان دالان على الوحدانية والتفرد، فالواحد هو المتفرد بالجلال والكمال والعظمة، والذي يجب أن يفرد وأن يخص وحده بالعبادة، فهما اسمان دالان على وحدانية الله، وتوحيد الله؛ لأن التوحيد الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فالأحد والواحد اسمان دالان على الوحدانية، فالله أحد واحد، أي متفرد بالربوبية لا ند له، وبالأسماء والصفات لا مثيل له، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، وبالألوهية لا شريك له.

قوله: عظيم: وهذا من أسماء الله الحسنى، من أسمائه تبارك وتعالى الحسنى العظيم، وقد جاء في مواضع كثيرة من القرآن منها آية الكرسي، ختمت بقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]، فاسمه تبارك وتعالى العظيم دال على عظمته في أسمائه، وعظمته في صفاته، وعظمته في أفعاله، فهو تبارك وتعالى العظيم.

ومن الآثار التعبدية لهذا الاسم: أن يعظم العبد الرب العظيم سبحانه وتعالى، وأن يقدره حق قدره، {مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦)} [نوح: ١٣- ١٦]: وقارًا: أي عظمة وتعظيمًا، وهذه آيات ومخلوقات تدل على عظمة الخالق وكمال المبدع سبحانه وتعالى، ومر معنا قول الله سبحانه: {وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: ٩١]: أي لم يعظموه حق تعظيمه.

إذن: فمن الآثار التعبدية لهذا الاسم أن يعظم الله جل وعلا، وتعظيم الله إنما يكون بتوحيده، وإخلاص الدين له، وتنزيهه تبارك وتعالى عن الشريك والمثال، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار الذين يصلون يوم القيامة النار: {إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة: ٣٣]؛ لأنه لو عرف عظمة الله لأخلص الدين له، ولم يجعل معه شريكًا حجرًا من الأحجار، أو شجرة من الأشجار، أو قبرًا من القبور أو غير ذلك.

قوله: عليم: وهذا أيضًا من أسماء الله الحسنى، وقد ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وهو دال على كمال العلم، وأن الله سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون؟، وعلمه تبارك وتعالى علم كامل، لم يسبقه عدم، ولا يلحقه نسيان، وهو علم محيط بكل شيء، قال الله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} [الطلاق: ١٢]، فالإيمان باسمه العليم يتضمن الإيمان بما دل عليه هذا الاسم من ثبوت العلم صفة لله تبارك وتعالى، العلم المحيط بكل شيء، {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} [طه: ٩٨].

قوله: عادل: وهذا فيه إثبات العدل صفة لله تبارك وتعالى، وقوله: عادل. هذا من باب الإخبار، يخبر عن الله سبحانه وتعالى بأنه عادل، وفيه إثبات كمال عدل الله، أي أنه لا يظلم، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]، لا يظلم الله سبحانه وتعالى مثقال ذرة، فهو عدل لا يظلم.

وهو جل وعلا عدل يأمر بالعدل، {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ} [النحل: ٩٠]، فهو عدل يأمر بالعدل، ويحب العدل، وسبحانه وتعالى لا يظلم، وفي الحديث: (إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا).

قوله: حكم الفعال: أي أنه حكيم في أفعاله كلها، وأفعاله كلها صادرة عن حكمة، فهو عز وجل حكيم، ومن أسمائه الحسنى الحكيم أي الذي له الحكم والحكمة، فأفعاله كلها صادرة عن حكمة، تنزه تبارك وتعالى وتقدس عن الباطل، وعن العبس، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً} [المؤمنون: ١١٥]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً} [ص: ٢٧]، {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]، فالله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك، فأفعاله كلها عن حكمة.

قد أخبر جل وعلا أن خلقه للثقلين الإنس والجن من أجل عبادته، وإخلاص الدين له، قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، هذه الحكمة من خلقه، فما خلق هذا الإنسان عبثًا، وما أوجده باطلًا، وإنما خلقه لمقصد عظيم، وغاية جليلة، وهي أن يعبد ربه، وأن يخلص الدين له، {إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}: أي إلا لآمرهم بعبادتي.

قوله: رحيم: الرحيم اسم من أسماء الله الحسنى، جاء في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، منها الفاتحة، والبسملة، فهو اسم من أسماء الله الحسنى دال على ثبوت الرحمة صفة لله، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: ٤٣].

قوله: بالعباد: المراد بالعباد هنا أهل العبودية الخاصة؛ لأن العباد تارة يطلق ويراد العبودية العامة التي هي ربوبية الله، وتارة يراد العبودية به العبودية الخاصة في مثل قوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً} [الفرقان: ٦٣].

قوله: رحيم بالعباد: أي رحيم بالمؤمنين؛ لأن الرحمة هذه خاصة بأهل الإيمان، خصهم بها سبحانه وتعالى.

قوله: إذا أنابوا وتابوا من متابعة الضلال: أي أن هذه الرحمة يكتبها لهم عند إنابتهم وتوبتهم إلى الله سبحانه وتعالى، فذكر الإنابة وذكر التوبة، ومن الآيات التي جمع فيها بين الإنابة والتوبة، قول الله سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر: ٥٣، ٥٤]، هذه الإنابة في قوله: {أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ}، فأين التوبة في هذا السياق؟ {لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}: أي توبوا إلى الله، {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}، أي توبوا مهما كانت ذنوبكم إياكم والقنوط، فمهما كانت الذنوب ومهما كانت المعاصي فالله جل وعلا لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، مهما بلغ الذنب وعظم الجرم الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب.

والشرك يدخل هنا في قوله: {لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}: أي بما فيها الشرك، ولا تعارض بين هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}، وبين قوله في سورة النساء: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} [النساء: ١١٦]، لماذا؟ لأن قوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} هذا في حق من مات، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً} في حق من تاب، من تاب، تاب الله عليه مهما كان ذنبه، ومهما كانت جريمته، فقوله: {لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}: أي توبوا إلى الله، وقوله: {أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ}: أي

أقبلوا عليه، وعلى طاعته، وإذا جمع بين التوبة والإنابة فإن التوبة تعني الإقلاع عن الذنوب، والإنابة تعني الإقبال على الله بفعل الطاعات، والاستكثار من العبادات.

قوله: إذا أنابوا وتابوا من متابعة الضلال: أي أقلعوا عن متابعة الضلال والباطل وأقبلوا على الله سبحانه وتعالى.

قوله: شديد الانتقام بمن عصاه: هذا مقابل لقوله: رحيم بالعباد إذا أنابوا، وتابوا. وهو أيضًا شديد الانتقام بمن عصاه.

قوله: ويصليه الجحيم ولا يبال: أي أن من عصا الله سبحانه وتعالى كفرًا وشركًا وتكذيبًا، فإن الله سبحانه يصليه النار ولا يبالي، ويخلده فيها أبد الآباد، ولا يكون له يوم القيامة أي مطمع في رحمة الله إطلاقًا، لا مطمع للكافر يوم القيامة في رحمة الله، ليس له إلا النار خالدًا فيها مخلدًا أبد الآباد، لا مطمع له في الرحمة، قد مر معنا الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [فاطر: ٣٦].

وقوله: رحيم. ثم بعده قوله: شديد الانتقام. فيه الجمع بين الترغيب والترهيب، البشارة والنذارة، مبشرين ومنذرين، وهذا في القرآن الكثير، {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وإيمان العبد بذلك كله هو الذي يحدث التوازن في العبودية عند العبد، خوفًا ورجاء، رغبًا ورهبًا، أما الذي يأخذ، {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، ويترك ما بعدها، {وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ}، يأمن من مكر الله، والذي يأخذ، {وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ}، ويغفل عن، {أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، يقنط من رحمة الله، وإذا جمعا معًا حصل التوازن بالجمع بين الرجاء والخوف، يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

*** المتن ***

فبادر بالذي يرضى لتحظى	***	بخير في الحياة وفي المآل
ولازم ذكره في كل وقت	***	ولا تركن إلى قيل وقال

*** الشرح ***

قوله: فبادر: فسارع يا من ترجو لنفسك النجاة وتروم السعادة يوم لقاء الله، {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ١٣٣]، بادر وسارع، إياك والتكاسل والتقاعس والفتور، وعليك بالمسارعة والمسابقة بالخيرات.

قوله: بالذي يرضى: أي بالذي يرضاه سبحانه وتعالى من صالح الأعمال وسديد الأقوال.

قوله: لتحظى بخير في الحياة وفي المآل: أي من أجل تحظى وتفوز بالخير في دنياك وأخراك.

وهذا فيه أن طاعة الله، والعمل بمرضاته سبحانه وتعالى سبب لسعادة العبد في الدنيا والآخرة، كما قال الله سبحانه وتعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]، فالعمل الصالح والإيمان يترتب عليه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

قوله: ولازم ذكره في كل وقت: أي لازم ذكر الله سبحانه وتعالى في كل الأوقات، وجميع الأحوال، ونبينا عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله في كل أحواله، أي قائمًا وقاعدًا وعلى جنب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران في أواخرها من صفات أولي الألباب: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩١].

قوله: ولا تركن إلى قيل وقال: أي لا تضيع وقتك في القيل والقال، وفي الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا:... يكره لكم قيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)، فلا تركن إلى قيل وقال، أي لا تضيع عمرك وحياتك في قيل وقال، وإنما احرص على أن تشغل وقتك بذكر الله، ومن ذكر الله سبحانه وتعالى تعلم العلم، والتفقه في دين الله سبحانه وتعالى، ومطالعة كلام أهل العلم في المصنفات والمؤلفات العلمية، وأيضًا سماع الدروس العلمية وحضور مجالس العلم، هذا كله من حفظ الوقت في ذكر الله سبحانه وتعالى.

وأحد علماء الكلام بعد أن أمضى شوطًا طويلًا من عمره في علم الكلام الباطل، قال على وجه الندم من هذا الذي حصل منه في وقت طويل من عمره:

ولم نستفد من جمعنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا قيل وقال

قال ذلك على وجه الندامة، وإذا كانت الإنسان مجالسه قيل وقال، و(بئس مطية المرء زعموا)، قيل: كذا. ويقال: كذا. ماذا سيكون رصيده؟ ما الخيرات مما يريد أن يلقى الله سبحانه وتعالى به؟ شتان بين من رصيده قيل وقال، وبمن هو مشتغل بذكر الله سبحانه وتعالى تفقهًا، وتعلمًا، وتسبيحًا، وتهليلًا، وحمدًا، ودعوة إلى الله، وغير ذلك من أبواب الخير ومجالاته.

*** المتن ***

وأهل العلم جالسهم وسائل * ولا يذهب زمانك في اغتفال**

*** الشرح ***

قوله: وأهل العلم جالسهم وسائل: هذا متعلق بما قبله؛ لأنه حذر من الركون إلى القيل وقال، أي المجالس التي ليس بها إلا قيل وقال، قال: هذه ازهد فيها، واعرض عنها، ولا تجعلها من مجالسك. فلا تجالس أهل القيل والقال، وإنما جالس أهل العلم، فإن مجالستهم غنيمة وربح لك في الدنيا والآخرة؛ لأنهم يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، ويعظون العاصي، ويشدون من أزر المطيع، ويفقهون في دين الله، ويعينون الناس على طاعة الله سبحانه وتعالى إلى غير ذلك من الخيرات التي يجريها الله سبحانه وتعالى على أيدي أهل العلم.

وفيه: التنبيه على أهمية المجالس التي فيها أهل الخير، وأهل الفضل، وأهل النبل، وأهل العلم، وأن هذه مجالس ينبغي على العبد أن يصبر نفسه فيها، كما قال الله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف: ٢٨]: هذه ثلاث انتبه لها: ولا تطع من هو موصوف بهذه الصفات الثلاث، {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}، من كان هذا وصفه احذره، واحذر من مجالسته؛ لأنه في غفلة عن الله وعن طاعته، ومتبع لهواه، وأمره منفرط ضائع، فشخص هذه صفته ليس للمرء أن يجالسه؛ لأن في مجالسة مثل هؤلاء العطب، وإنما الذين يجالَسون أهل العلم.

قوله: جالسهم: أي احرص على مجالستهم.

قوله: وسائل: أي أيضًا تعلم وتفقه واسألهم عما تجهل من أمر دينك.

قوله: ولا يذهب زمانك في اغتفال: أي إياك ثم إياك أن تذهب حياتك في الغفلة، والأيام والشهور والأعوام تجري، إن لم يأخذها ويزم نفسه بها بزمام الشرع، وإلا يذهب الوقت وينقضي العمر، فإياك أن يذهب عمرك وزمانك في اغتفال، أي في غفلة عن الله وعن طاعته سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه الوابل الصيب: فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل[٢] فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة، كان أمره فرطًا، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه، وقدوته، ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه.

أي إن وجده غافلًا، متبعًا لهواه، أمره فرطًا، ضائعة عليه أوقاته، وهذا يكتشف في الفرائض بالدرجة الأولى ولا سيما الصلاة، ولهذا بعض من كانوا يرحلون قديمًا في طلب العلم إذا وصل إلى بلدة يتلقى العلم عن شيخ من الأشياخ يمتحنه في الصلاة، ينظر في المسجد، هل هو مواظب على الصلاة أو لا؟ إن وجده مفرطًا في الصلاة تركه، فالصلاة محك وميزان يومي يكتشف فيه من جمع الله سبحانه وتعالى له أمره في طاعة الله، وبين من أمره فرطًا، والصلاة أكبر شاهد على ضياع الأمر؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

وقرأت لأحد المعاصرين يقول: مرة في أحد المساجد حضرت لشخص يوصف بأنه داعية، ويتكلم عن الإسلام، والإسلام، والإسلام، كلام مؤثر جدًا، فأعجبت به، وقلت: هذا الشخص هو بغيتي، سألازمه، واستفيد منه. فسألت عن منطقته حتى استفيد منه، وأتيت إلى المسجد في صلاة الفجر، فلما صلينا ما وجدته، فقلت: لعله مريض أو مسافر. وجئت اليوم الثاني ما وجدته، فسألت عنه جماعة في المسجد، قالوا: هو لا يأتي إلى صلاة الفجر، ونادرًا يأتي. قلت: سأذهب إليه وأناصحه. قلت: أنت تكلمت بالمحاضرة، أو

---

[٢] هذه مسألة مهمة، وكثيرًا مما يسأل عنها خاصة الشباب، ومن كان أيضًا في بدايات التدين والاستقامة.

الكلمة الفلانية، وهي مؤثرة وعظيمة، وأنا جئت أستفيد، قالوا: إنك ما تأتي للصلاة. قال: والله هناك التزامات كثيرة، ونسهر، وأعمال. هذا أمره فرطًا، ضائع، والله لو كان الشخص يسهر في الليل يقرأ القرآن، ويعلم أن قراءة القرآن في الليل يترتب عليها ضياع صلاة الفجر، فلا يجوز له أن يقرأ القرآن في الليل، كيف بمن يسهر في المرح، وقيل، وقال، وأمور ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، أو في النظر والمشاهدات المحرمة التي ابتلي بها كثير من الناس في زماننا هذا.

فيقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه.

هذه كلمة ووصية عظيمة للإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- فيما يُسأل عنه كثيرًا، ويسأل عن كثير من الشباب من يلازم، عن من يأخذ العلم؟ فهذه أمارات، وعلامات دقيقة جدًا ذكرها الإمام ابن القيم مستنبطة من الآية الكريمة من سورة الكهف.

*** المتن ***

وأحسن وانبسط وارفق ونافس * لأهل الخير في رتب المعالِ**

فحسن البشر مندوب إليه * ويكسو أهله ثوب الجمالِ**

*** الشرح ***

هذه آداب عظيم وأخلاق جليلة يحث الناظم -رحمه الله تعالى- على التحلي بها.

قوله: وأحسن: أي أحسن في عبادة الخالق، وأحسن في معاملة المخلوقين، فإن الله سبحانه وتعالى يحب المحسنين، والإحسان في عبادة الله هو العمل على تتميمها وتكميلها، والإحسان في معاملة المخلوقين بمعاملتهم بالمعاملة الكريمة بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأن يعاملهم بالمعاملة التي يحب أن يُعامل بها.

وهي الصفة الأولى التي يحث الناظم على التحلي بها.

قوله: وانبسط: أي قابل الناس وعاملهم بالانبساط، كن منبسطًا تلقاهم بطلاقة الوجه، وجمال المحيا، وكريم الخلق والمعاملة.

قوله: وارفق: أي تحلَ بالرفق، فإن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه، وضد الرفق الطيش والعجلة والاندفاع، فيحذر من هذه الصفات، ويتحلى المرء بالرفق في معاملاته، فـ(إن الله سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على ما سواه)، من العنف والشدة.

قوله: ونافس لأهل الخير في رتب المعالِ: احرص على أن تنافس أهل الخير في الرتب العالية التي ترتفع بها درجات العبد عند الله سبحانه وتعالى، والتنافس في الخيرات أمر محمود ومرغب فيه.

وفرق بين التنافس والحسد:

التنافس: أن يجاهد الإنسان نفسه على أن يسبق الآخرين في المعالي، وهذا أمر محمود، {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦]، فيحرص على المسابقة، يعني تعرف مثلًا من أحد أصدقائك، أنه كل يوم يأتي إلى المسجد بعد الآذان مباشرة، وتقول له: أنا أريد أن أسبقه، وأتي قبل الآذان. هذا محمود، أمر يحمد، والتنافس يكون سببًا في قوة العمل، والمزيد منه.

أما الحسد: فهو تمني زوال الخير عن الغير، وهو أمر ذمه الله، وهو من صفات اليهود، ومن صفات إبليس، أمر ذمه الله سبحانه وتعالى.

قوله: فحسن البشر: أي أن يقابل الناس بوجه طليق، مثل ما في صحيح مسلم: عن أبي ذر: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)، فالبشر وطلاقة الوجه سبب في جمال الشخص، والأخلاق هي حقيقة جمال لصاحبها، وزينة له، كلما زاد خلقه، زاد جماله.

قوله: ويكسو أهله ثوب الجمالِ: وهذا أيضًا فيه التنبيه إلى أن الثوب نوعان:

الأول: الثوب الحسي. وهو الملابس التي يلبسها الإنسان.

الثاني: الثوب المعنوي. وهو الطاعة والخلق والعبادة، كما قال الله: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦].

*** المتن ***

وأحبب في الإله وعاد فيه * وأبغض جاهداً فيه ووالِ**

وأهل الشرك باينهم وفارق *** ولا تركن إلى أهل الضلال

*** الشرح ***

هذان البيتان عقدهما في بيان أوثق عرى الإيمان، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله)، وجاء في الحديث الصحيح عن أبي أمامة في سنن أبي داود وغيره، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان).

قوله: وأحبب في الإله وعادِ فيه، وأبغض جاهدًا فيه ووالِ: أي ليكن حبك في الله، وعداؤك فيه، وبغضك في الله، وموالاتك في الله، تحب الشخص لا تحبه إلا لله، وتبغضه لا تبغضه إلا لله، وتعادي الشخص لا تعاديه إلا لله، وتوالي الشخص لا تواليه إلا لله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار).

قوله: وأهل الشرك باينهم وفارق ولا تركن إلى أهل الضلال: أي أن أهل الشرك باينهم، وفارقهم، وابتعد عنهم، وكن في جانب بعيد عنهم، مثل ما قال خليل الرحمن في دعائه: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]: أي اجعلني في جانب بعيد عن الأصنام، وعن عبدة الأصنام.

وهذا فيه أن الموحد مطلوب من براءتان: براءة من الشرك، وبراءة من أهله، مباينة للشرك، ومباينة لأهله، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: ٤]، فهما براءتان.

قوله: وأهل الشرك: هم الذين يتخذون مع الله شركاء، سواء كان الشريك حجرًا، أو شجرًا، أو قبرًا، أو وليًا، أو غير ذلك، فالشرك شرك كيفما كانت صورته، والعبادة صرفها لغير الله شرك، أيًا كان هذا المعبود الذي صرفت له العبادة، فالعبادة حق لله، لا يجوز أن تصرف إلا له، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [الجن: ١٨]، فمن دعا غير الله، أو عبد غير الله، أو صرف شيئًا من عباده لغير الله كان من

المشركين، وقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

المجلس: ٤

*** المتن ***

وتشهد قاطعاً من غير شك *** بأن الله جل عن المثال
علا بالذات فوق العرش حقاً *** بلا كيف ولا تأويل غال
علو القدر والقهر اللذان *** هما لله من صفة الكمال
بهذا جاءنا في كل نص *** عن المعصوم من صحب وآل

*** الشرح ***

هذا البيت وما يتبعه من أبيات كلها في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، وأهل السنة مضت كلمتهم أجمعين على الإقرار بأسماء الله وصفاته، وإثباتها لله عز وجل كما أثبتها لنفسه، وكما أثبتها له رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يمرونها كما جاءت، ويؤمنون بها كما وردت، ويقرون بأن كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فهو حق، فيثبتونه كما جاء، ويؤمنون به كما ورد.

وبدأ -رحمه الله تعالى- كلامه في باب الأسماء والصفات بإثبات صفة العلو لله عز وجل، وأن الله علي على خلقه، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه سبحانه وتعالى، فوق عرشه المجيد، مستوٍ استواء يليق بجلاله وكماله، كما أخبر هو سبحانه وتعالى عن نفسه بذلك في القرآن، وكما أخبر عنه رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: وتشهد: أي يا من تريد لنفسك سلامة القلب وصلاحه، واستقامته، عليك بهذه الشهادة، شهادة الإيمان، والإقرار، والتصديق بأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته الواردة في كتابه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

قوله: قاطعاً: أي جازمًا، ومتيقنًا دون ارتياب أو تردد.

قوله: من غير شك: أي دون أن يقوم في قلبك شيء من الشك أو الارتياب، ولا يكون الإيمان إيمانًا إلا بانتفاء الريب والشك، كما قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

يَرْتَابُوا} [الحجرات: ١٥]: أي أيقنوا ولم يشكوا، وفي الحديث: قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا أدخله الله الجنة)، وهو في صحيح مسلم، فالإيمان لا يكون إيمانًا إلا بانتفاء الشك والريب، أما مع وجود الشك والريب فلا يسمى إيمانًا ولا يسمى عقيدة، فالعقيدة سميت عقيدة من العقد الذي هو الربط، بحيث أن القلب يجزم بهذا الشيء، أما إذا كان القلب عنده تردد أو نحو ذلك، فهذه ليست عقيدة، ولا يكون أهلها من أهل العقيدة.

قوله: جل عن المثال: هذه جملة معترضة، جملة تنزيه وتقديس بأن تؤمن بأن الله جلا علا، أي تنزه وتقدس عن المثال، أي عن أن يكون له مثال، أي نظير ومثيل، قال الله تعالى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، وقال تبارك وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وقال تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم: ٦٥]، والاستفهام هنا استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا سمي له، والسمي المثيل، أي لا مثيل له.

قوله: علا بالذات: هو خبر أن في قوله: أن الله جل عن المثال. أي أن الله علا بذاته علوًا حقيقيًا يليق بجلاله وكماله، كما قال سبحانه وتعالى في القرآن: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، وقال سبحانه وتعالى في ستة مواضع من القرآن: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤، وغيرها]، والاستواء معناه العلو والارتفاع، فنؤمن أن الله جل علا بالذات فوق العرش.

قوله: علا: أي ارتفع واستوى على العرش المجيد استواء يليق بجلاله.

قوله: فوق العرش: العرش سقف المخلوقات وأعلاها، وقد وصفه الله في القرآن بالعظيم، ووصفه بالمجيد، والمجد هو السعة، ووصفه بالكريم، والكرم هو البهاء والجمال وتعدد المحاسن، وهو أعلى المخلوقات وسقفها.

قوله: حقاً: أي لا ريب في ذلك ولا شك لثبوته في الوحي، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: بلا كيف: أي بلا تكييف، فالنفي هنا نفي للتكييف، أي بلا كيف نعلمه، أما صفات الله سبحانه وتعالى ومنها الاستواء لها كيفية يعلمها هو سبحانه، لكن النفي هنا نفي لعلمنا بالكيفية، وهو كقول السلف عن الصفات عمومًا: أمروها كما جاءت بلا كيف، ومعنى قولهم: بلا كيف. أي بلا تكييف، نفي لعلمنا بالكيفية، الكيف لا نعلمه؛ لأن الله سبحانه وتعلى أخبرنا في القرآن بأنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف استوى على العرش، فنؤمن بالذي أخبرنا به دون تردد أو ارتياب، ونسكت عما لم يخبرنا به، وهكذا الشأن في جميع أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، بل في جميع المغيبات.

وقد جاء عن الإمام مالك -رحمه الله تعالى- كلمة عظيمة مشهورة عندما دخل عليه رجل، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، كيف استوى؟. وهذا السؤال عند السلف سؤال باطل محرم، إنما يقع في الغالب من أهل البدع والضلال، فغضب مالك -رحمه الله تعالى- غضبًا شديدًا حتى علاه الرحضاء، أي تصبب عرقًا تصببًا شديدًا، وهذا التصبب للعرق بهذه الشدة يقع من كثير منا في الغالب عندما يُمس شيء من دنياه، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام لم يغضب لنفسه قط، وإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فغضب مالك ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، أخرجوه عني. لأن هذا سؤال باطل مرفوض.

الاستواء معلوم: أي معلوم المعنى واضحه، أي معناه علا وارتفع علوًا يليق بجلاله وكماله، فكلمة استوى كلمة واضحة المعنى، مفهومة الدلالة.

والكيف مجهول: كيف استوى؟ هذا أمر مجهول لا نعلمه، ولا يجوز لنا أن نخوض فيه، ولا يجوز أن نسأل عنه، ولهذا قال السلف -رحمهم الله تعالى-: في باب الصفات، لا يقال: كيف؟. وفي باب الأفعال لا يقال: لم؟. لا يقال: لم فعل الله كذا؟ ولم لم يفعل كذا؟. من هو العبد الذي يتجرأ على مقام الرب العظيم بمثل هذا السؤال، لم فعل الله، ولم لم يفعل الله؟، ولهذا قال السلف قديمًا -رحمهم الله-: لا تقل: لم أمر الله؟. ولكن قل: بم أمر الله؟. لأنك عبد، تحتاج أن تعرف الذي أمرك الله به لتفعله، وهؤلاء الذين يسألون عن الصفات بكيف؟ وعن الأفعال بلِم؟ ذمهم السلف أشد الذم وحذروا منهم أشد التحذير، ونعتوا بالمكيفة واللِّمّية، فالمكيفة أي يسألون عن الكيف، ويخضون في الصفات بكيف، واللِّمّية؛ لأنهم يسألون في باب

الأفعال بلِم، وهذا كله باطل، فلا يجوز السؤال عن كيفية الصفات؛ لأن الصفات معلومة من حيث المعنى، أما كيفيتها مجهولة.

قوله: ولا تأويل غال: أي نثبت العلو دون أن نكيف، وأيضًا في الوقت نفسه نحذر من تأويل الغلاة الذين يحرفون المعنى، ويعطون اللفظ معنى لفظ آخر؛ لأن التأويل هو صرف اللفظ عن معناه ومدلوله إلى مدلول لفظ آخر، مثل قولهم في الاستواء: المراد به الاستيلاء، استوى أي استولى. وهذا تأويل باطل ترده اللغة ويرده الشرع، والاستواء مثل ما قال الإمام مالك: معلوم. معناه معلوم بدون تأويل هؤلاء الغلاة المحرفين، معلوم أي علا وارتفع.

ولهذا قال في أثر آخر -رحمه الله تعالى-: الله في السماء وعلمه في كل مكان. في السماء أي على السماء، علوًا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى.

قوله: علو القدر والقهر اللذان هما لله من صفة الكمال: أي وأيضًا نثبت لله علو القدر وعلو القهر؛ لأن معاني العلو ثلاثة، وكلها ثابتة لله:

الأول: علو الذات. وقد تقدم في البيت الأول عند قوله: علا بالذات.

الثاني: علو القدر. أي المكانة، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الزمر: ٦٧].

الثالث: علو القهر. {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨].

فهذه المعاني الثلاثة للعو كلها ثابتة.

قوله: بهذا جاءنا في كل نص عن المعصوم من صحب وآل: أي جاءنا في النصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي يرويها عنه الصحابة -رضيَّ الله عنهم- وآل البيت -رضيَّ الله عنهم-.

قوله: بهذا جاءنا في كل نص: تنبيه إلى أن هذه العقيدة قائمة على النصوص، خلاف عقيدة المتكلمين القائمة على الكلام والمنطق والآراء ونحو ذلك.

*** المتن ***

وينزل ربنا في كل ليل إلى * أدنى السموات العوال**

لثلث الليل ينزل حين يبقى *** بلا كيف على مر الليال
ينادي خلقه هل من منيب؟ *** وهل من تائب في كل حال؟
وهل من سائل يدعو بقلب *** فيعطى سؤله عند السؤال
وهل مستغفر مما جناه *** من الأعمال أو سوء المقال؟

*** الشرح ***

هذه الأبيات الخمسة في إثبات صفة النزول، وهي صفة ثبتت بها السنة المتواترة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؛ لأن حديث النزول حديث متواتر، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقرب من ثلاثين صحابيًا، جمع أحاديثهم وساقها مخرجة من مصادرها الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى– في كتابه: (الصواعق المرسلة)، فهو حديث متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر فيه صلى الله عليه وسلم بأن الله ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر، قال عليه الصلاة والسلام: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، فيقول: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يدعوني فاستجيب له؟)، والناظم –رحمه الله تعالى– في هذه الأبيات يقرر ثبوت هذه الصفة.

قوله: وينزل ربنا في كل ليل: أي في كل ليلة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن هذا النزول الإلهي يكون كل ليلة.

وقوله: ينزل ربنا: أسند هذا النزول وأضافه إلى الله، فهو نزول مضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فهو جل وعلا الذي ينزل، ليس غيره، خلافًا لما يقوله أهل البدع في فهم هذا الحديث، والنبي صلى الله عليه وسلم حدث به مرات كثيرة لغير واحد من الصحابة، في كل تلك المرات يقول: (ينزل ربنا)، لم يقل: ينزل أمر ربنا، أو ملك ربنا. أو غير ذلك من تأويلات أهل البدع، فأسند النزول إلى الله، فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا في كل ليلة).

قوله: إلى أدنى السموات العوال: أي إلى السماء الدنيا، وتسمى أدنى السموات، أي إلى الأرض، بالسماء الدنيا، لدنوها لكونها أدنى سماء إلى الأرض، فينزل إلى أدنى السموات العوال، أي السموات العاليات، ينزل إلى السماء الدنيا، وكما تقدم لا يجوز أن يقال: كيف ينزل؟. هذا السؤال باطل محرم من

سؤالات أهل البدع، لا يجوز أن يقال: كيف ينزل؟. ونبينا عليه الصلاة والسلام أخبرنا أن ربنا ينزل إلى السماء الدنيا ولم يخبرنا كيف ينزل، فنحن نؤمن بما أخبرنا به، ونكف عن الخوض عما ما لم يخبرنا به، وربنا يقول: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦]، ويقول: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٩٦].

قوله: لثلث الليل: لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن هذا النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل، إذا قسمت الليل إلى ثلاثة أثلاث فثلثه الأخير هو وقت النزول الإلهي.

قوله: ينزل حين يبقى: أي حين يبقى الثلث الأخير من الليل؛ لأن إذا قسمت الليل إلى ثلاثة أثلاث، فالثلث الأخير من الليل هو وقت النزول الإلهي.

قوله: بلا كيف: أي أن هذا النزول بلا تكييف، ولا يجوز أن يقال: كيف ينزل؟. أو يخاض في النزول بكيف، أو يسأل عن النزول بكيف، هذا باطل.

قوله: على مر الليال: أخذًا من قول نبينا عليه الصلاة والسلام: (كل ليلة)، فهو نزول مستمر كل على مر الليالي كل ليلة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قوله: ينادي خلقه: أي الله سبحانه وتعالى ينادي خلقه.

قوله: هل من منيب؟ وهل من تائب في كل حال؟: أي هذا باب مفتوح للإنابة إلى الله والتوبة، والإنابة هي الرجوع إلى الله بالإقبال على طاعته، والتوبة هي البعد عن الذنوب والمعاصي، والإقلاع عنها، قد قال الله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر: ٥٣، ٥٤]، فالعبد مطلوب منه أن يتوب بأن يقلع عن الذنوب والمعاصي، وأن ينيب بأن يقبل على الله، طاعة له، وامتثالًا لأوامره سبحانه وتعالى.

قوله: وهل من سائل يدعو بقلب؟: أي بقلب مقبل على الله، (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة فأن الله لا يستجيب لقلبٍ غافل لاهٍ)، في ذلك دعوة إلى الإقبال، إقبال العبد على الله بقلبه، في دعائه وسؤاله، ومناجاته لله سبحانه وتعالى.

قوله: فيعطى سؤله عند السؤال: تنبيه إلى أن الدعاء في ثلث الليل الأخير مستجاب؛ لأن الله قال: (هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فاستجيب له)، فالدعاء مستجاب لا يرد.

قوله: وهل مستغفر مما جناه من الأعمال أو سوء المقال؟: أي طالب من الله سبحانه وتعالى الغفران، وهذا الوقت الشريف هو أفضل أوقات الاستغفار، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧]، وقال جل وعلا: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٨]، فهو وقت شريف وعظيم من أشرف أوقات الاستغفار وأعظمها.

وانظر في حديث النزول تجد الارتباط بين العقيدة والعمل، وأثر العقيدة الصحيحة في استقامة العمل وصلاحه؛ إذ إن من قام في قلبه إيمان صادق، و قوة يقين بعقيدة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر، وأعانه الله سبحانه وتعالى على القيام في ذلك الوقت، أو في جزء منه، مقبلًا على الله، مناجيًا، وداعيًا، وسائلًا، وطالبًا، كم في هذا من الشرف العظيم والخير الكبير؟ والمنافع والفوائد التي لا حد لها.

ولهذا: فإن هذا الوقت وقت عظيم جدًا لتجديد الإيمان، وتقوية أصوله وتثبيتها، وقوة الإقبال على الله سبحانه وتعالى، وحسن الصلة به، وجمال مناجاة الله سبحانه وتعالى، وهو من أحسن الأوقات لتحقيق هذه المعاني في هدوء الكون، وسكونه، وهجوع الناس، يقوم العبد من نومته، مع أن نفسه تدعوه إلى البقاء في فراشه، لا يقوم إلا للإقبال على ربه، وطلب ما عنده، في خلوة بينه وبين الله، لا يطلع عليها إلا ربه سبحانه وتعالى، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا قام يتهجد من الليل، بدأ تهجده بكلمات عظيمات جدًا من أعظم ما يكون في تقوية الإيمان، وتجديد الاعتقاد، وتقوية الصلة بالله، فكان يستفتح صلاته من الليل –كما في حديث ابن عباس في الصحيحين- بقوله: (اللهم: لك الحمد، أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم: لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما

أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)، اشتملت هذه الكلمات على اثنتين وعشرين جملة، وهي جمل عظيمات في تقرير الاعتقاد، وذكر أصول الإيمان، وحسن التوسل إلى الله سبحانه وتعالى، وجمال الإقبال عليه جل وعلا، ولهذا ينبغي على العبد أن يتنبه لذلك، وأن يستفيد من تعلمه لهذه العقيدة المباركة أن الله سبحانه وتعالى ينزل في ثلث الليل الآخر، وأن يحرص أن يكون له حظ من ذلك الوقت الشريف الفاضل ولو يسيرًا، ويستفتح بهذه الكلمات العظيمة المباركة التي فيها تجديد للإيمان وتقوية له، وتثبيت للعقيدة، وقد جمعت هذه الكلمات أمور الاعتقاد كلها، ولهذا يمكن أن يقال عن هذا الحديث: إنه متن جامع في العقيدة، يستحب لكل مسلم أن يستذكره كل ليلة. وهذا لا يمكن أن تقوله في المتون التي كتبها العلماء وجمعها أهل العلم، والعلماء –رحمهم الله– نبهوا أن هذه الأذكار الشرعية إنما تكون محققة الفائدة عندما يأتي بها وهو يعقل معناها، ويعرف مدلولها، وقد يسر الله عز وجل، وهو الميسر وحده والمان والمتفضل، أن فرغت في هذه الأيام من كتابة رسالة بعنوان: (المقالة المفيدة شرح حديث جامع في العقيدة)، في شرح هذا الحديث وتطبع بإذن الله سبحانه وتعالى قريبًا، أسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه، نافعة لي ولعباده إنه سبحانه سميع قريب مجيب.

*** المتن ***

وتشهد أنما القرآن حقاً	***	**كلام الله من غير اعتلال**
ولا تمويه مبتدع جهول	***	**بخلق القول عن أهل الضلال**
وآيات الصفات تمر مراً	***	**كما جاءت على وجه الكمال**

*** الشرح ***

يقول –رحمه الله تعالى– مقررًا العقيدة في القرآن، وفي كلام الله سبحانه وتعالى.

قوله: وتشهد أنما القرآن حقاً كلام الله: أي يا من تريد لقلبك السلامة والصحة والاستقامة تشهد أنما القرآن حقًا كلام الله.

قوله: من غير اعتلال: أي أن الله سبحانه وتعالى تكلم به حقًا، وهو كلامه سبحانه وتعالى، سمعه منه جبريل عليه السلام، ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

قوله: ولا تمويه مبتدع جهول بخلق القول عن أهل الضلال: أي تثبت أن القرآن كلام الله إثباتًا واضحًا صريحًا بلا تمويه؛ لأن بعض أهل البدع عنده تمويه في هذا الباب، فتجد ظاهر كلامه عن الإثبات، وباطن كلامه الجحد والنفي، حقيقة كلامه جحد ذلك ونفيه، وهذا ضرب من ضروب التمويه، فيجب على المسلم أن يثبت أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وأن الله هو الذي تكلم به كلامًا يليق بجلاله وكماله، وعظمته سبحانه، دون تمويه مبتدع جهول بخلق القرآن، أي يقول بخلق القول بخلق القرآن، فيعتقد أن القرآن مخلوق ولكنه مموه، مثلًا من أمثلة التمويه التي يشير إليها: أن بعضهم يقول: الكلام يضاف إلى الله، ونقول: كلام الله، ونضيفه إلى الله، لكن الإضافة إضافة خلق. إذن ماذا حصل إلا التمويه؟ وإلا فالعقيدة هي جحد أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى.

قوله: عن أهل الضلال: لعلها -والله أعلم- من أهل الضلال[٣].

قوله: وآيات الصفات تمر مراً كما جاءت على وجه الكمال: أثبت في هذا قاعدة أهل السنة والجماعة في باب الصفات، وهي قاعدة جامعة وعظيمة حيث قالوا -رحمهم الله-: آيات الصفات تمر كما جاءت. قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف. هذه كلمة السلف، ونظم هذا المعنى بقوله: وآيات الصفات تمر مرًا، كما جاءت على وجه الكمال.

وانتبه لقوله: كما جاءت. وهو قول السلف: أمروها كما جاءت. كيف جاءت؟ آيات الصفات وأحاديث الصفات هل جاءت ألفاظًا لا معنى لها؟ أو جاءت ألفاظًا محملة بالمعاني؟.

---

[٣] ويمكن أن تكون على ما هي عليه، وتُحمل على أنه ينقل هذه البدعة عن أهل الضلال السابقين. مفرغ الأشرطة.

الجواب: جاءت ألفاظًا محملة بالمعني، إذن: إمرارها كما جاءت بإثبات هذه المعاني التي جاءت محملة بها، ولا يكون مُمرًا لها كما جاءت إلا من يثبت معناها، أما من يفوض المعنى، أو يجحد المعنى، أو يؤول المعنى، كل هؤلاء لم يمروها كما جاءت، وإنما الذي يمرها كما جاءت هو الذي يثبت معناها الذي دلت عليه وجاءت محملة به.

قوله: كما جاءت على وجه الكمال: لأن الله سبحانه وتعالى له صفات الكمال، ونعوت الجلال، وله المثل الأعلى جل وعلا.

*** المتن ***

ورؤيا المؤمنين له تعالى * عياناً في القيمة ذي الجلال**

يرى كالبدر أو كالشمس صحواً * بلا غيم ولا وهم خيال**

*** الشرح ***

وفي هذين البيتين يذكر ما يتعلق برؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، والرؤية حق دل عليها القرآن، ودلت عليها السنة، قال الله سبحانه وتعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]: {نَّاضِرَةٌ}: من النضرة وهو الحسن والبهاء، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، أضاف النظر إلى الوجه، وعدّاه بإلى وهذا لا يكون إلا في النظر بالباصرة التي هي العين، فهذا إثبات النظر إلى الله سبحانه وتعالى حقيقة بالأبصار لأهل الإيمان يوم القيامة؛ لأنه قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [القيامة: ٢٢- ٢٤]، فإذن هذا النظر والنضرة إنما هو لأهل الإيمان، وقد ثبت في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا)، فالناظم -رحمه الله تعالى- في هذين البيتين يقرر هذه العقيدة.

قوله: ورؤيا المؤمنين له تعالى، عيانًا في القيامة ذي الجلال: أي أنها حق وثابتة، وتشهد بها، وتقر بها، تشهد أنها القرآن حق، وأنها رؤية المؤمنين له تعالى عيانًا، أي ثابتة متقررة، دل عليها كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

قوله: في القيامة: أي لا تكون في الدنيا، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، فهي لا تكون في الدنيا، وإنما تكون في القيامة.

قوله: يرى كالبدر أو كالشمس صحوًا بلا غيم ولا وهم خيال: جاء في الصحيحين عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه سُئل: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا يا رسول الله. قال: (هل تضارون في القمر ليس دونه سحاب؟)، قالوا: لا يا رسول الله. قال: (فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك): أي رؤية حقيقة مثل ما ترون الشمس ليس بينكم وبينها سحاب، والحديث في الصحيحين، وترونه حقيقة كما ترون القمر ليس بينكم وبينه سحاب، رؤية حقيقية، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (كذلك): تشبيه للرؤية بالرؤية، وليس للمرئي بالمرئي، أي رؤية حقيقة بالأبصار دون تضام وتزاحم وشدة ونحو ذلك، وإنما هي رؤية حقيقة تحصل لأهل الإيمان أجمعين.

ولاحظ في الحديث المتقدم الصلة بين الصلاة والرؤية، والصلاة سميت صلاة؛ لأنها صلة بين العبد وبين الله، ولهذا لاحظ قال: (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا)، ونص على هاتين الصلاتين: الفجر والعصر؛ لأنهم أفضل الصلوات، ولأنها أيضًا من أكثر الصلوات تضييعًا عند كثير من الناس، فمن وفق للمحافظة على هاتين الصلاتين وفق للمحافظة على ما سواهما من الصلوات، ومن ضيع هاتين الصلاتين ولا سيما صلاة الفجر التي تأتي في مفتتح اليوم فإنه يكون بذلك هدم يومه، وانتزعت من يومه بركته من أول لحظة فيه، وكما قيل قديمًا: يومك مثل جملك، أن أمسكت أوله تبعك آخره. أما من خسر أول اليوم خسر اليوم كله، ومن وفق لحفظ أول اليوم وفق لحفظ اليوم كله، وما يكون في أول اليوم يكون في سائر اليوم، ولهذا قيل: أول يومك شبابه، وآخره شيخوخته، ومن شب على شيء شاب عليه. أي الذي يكون في أول اليوم ينسحب على بقية اليوم، إن نشاطًا فنشاط، وإن كسلًا فكسل، فمن ضيع صلاة الفجر فهو لما سواها من الصلوات أضيع، ومن وفق للمحافظة عليها أعين بإذن الله سبحانه وتعالى، وكان في ذمة الله يومه كله كما جاء بذلكم الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

فثمة صلة بين الصلاة والرؤية، ولهذا ثبت عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعو في آخر صلاته بالدعاء المعروف، (اللهم: بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خير لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خير لي... وأسالك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم: زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين).

ثم بعد ذلك انتقل الناظم -رحمه الله تعالى- إلى ذكر المعتقد في اليوم الآخر، فذكر الميزان والحوض وغير ذلك من العقائد التي تتعلق باليوم الآخر، ثم أيضًا أشار إلى ما يتعلق بالإيمان بالقدر.

المجلس: ٥

*** المتن ***

ومیزان الحساب كذاك حقًا *** مع الحوض المطهر كالزُّلال
ومعراج الرسول إليه حق *** بنص وارد للشك جال

*** الشرح ***

هذه الأبيات قرر فيها الناظم -رحمه الله تعالى- بقية مسائل الإيمان، ولاسيما ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بكل ما يكون بعد الموت مما ورد تفاصيله في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

والناظم -رحمه الله تعالى- ذكر الميزان، وذكر الحوض وهي مما يكون يوم القيامة إشارة منه -رحمه الله تعالى- بما ذكر إلى ما لم يذكر؛ لأن هذه المغيبات والتفاصيل التي تتعلق باليوم الآخر يؤمَن بكل ما ورد منها في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قوله: وميزان الحساب كذاك حقًا: أي الميزان الذي ينصب يوم القيامة، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧]، وهو ميزان حقيقي ينصب في ذلك اليوم العظيم، ميزان له كفتان، كفة توضع فيها الحسنات، وكفة توضع فيها السيئات، قال الله تعالى: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المؤمنون: ١٠٢]، اللهم: اجعلنا منهم يا رب العالمين، {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١٠٣]، فهذا ميزان حقيقي ينصب يوم القيامة، ونصب هذا الميزان من كمال عدل الله سبحانه وتعالى، ويوزن في هذا الميزان أعمال العباد خيرها وشرها، وتوزن أيضًا فيه صحف الأعمال، كما جاء في الحديث: (يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، فيقال له: ألك حسنة؟، فيهاب الرجل، فيقول: لا. فيخرج بطاقة، فيها أشهد أن لا إله إلا الله، فيقول الرجل: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات!. فتوضع البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات، ولا يثقل مع اسم الله شيء)، فقوله: (توضع

البطاقة في كفة، والسجلات في كفة)، هذا فيه أنه ميزان حقيقي له كفتان: كفة توضع فيها حسنات العبد، وسجلات الحسنات، وكفة توضع فيها سيئات العبد، وسجلات السيئات.

قوله: مع الحوض المطهر كالزُّلال: أيضًا من الأمور التي جاءت النصوص بحقيتها وثبوتها، الحوض المورود، حوض نبينا عليه الصلاة والسلام، و(لكل نبي حوض)، وجاء وصف الحوض المورود بأن كيزانه عدد نجوم السماء، وطعمه أحلى من العسل، ولونه أبيض من اللبن، ورائحته أطيب من رائحة المسك، إلى غير ذلكم من صفاته التي جاءت في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، قال: (من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبدًا)، فنؤمن بهذا الحوض.

قوله: مع الحوض المطهر: أي المطهر من الأنجاس والأقذار.

قوله: كالزُّلال: أي عزوبة، فهو ماء كالزلال أي ماء عذب طيب، (من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا).

قوله: ومعراج الرسول: أي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين.

قوله: إليه: أي إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله: حق: أي ثابت دلت عليه الأحاديث الصحيحة الثابتة عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: بنص وارد للشك جال: أي بنص صحيح ثابت عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، لا يبقى مع هذا النص أي شك في ثبوت المعراج، وأن المعراج حق.

وقد جاء في حديث المعراج أن نبينا عليه الصلاة والسلام، عرج به إلى السماء الأولى، ومنها إلى الثانية، ومنها إلى الثالثة، إلى أن بلغ السماء السابعة، في كل سماء يلقى بعض أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه، وآخر من يلقاهم إبراهيم الخليل، خليل الرحمن، يلقاه في السماء السابعة، فيسلم عليه، ويرحب به إبراهيم، ويقر بنبوته، ثم بعد ذلك رفع عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور،

ثم عُرج به إلى الجبار جل وعلا فدنى منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ١٠]، وفرض عليه الصلاة خمسين صلاة، ثم خففت إلى خمس صلوات.

فهذا المعراج حق، وهو من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام ومناقبه ومآثره العظيمة صلى الله عليه وسلم.

ويدل هذا المعراج على عظم شأن الصلاة التي فرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم فوق سبع سموات، أما بقية فرائض الإسلام وواجبات الدين فكان جبريل ينزل بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذه الصلاة خصت بأن فرضت على نبينا عليه الصلاة والسلام فوق سبع سموات عندما عرج به إلى السماء مما يدل على المكانة العظيمة لهذه الصلوات الخمس التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده.

لكن مع غربة الدين في بعض الأمكنة يشتغل الناس بالبدع ويدعون الفرائض، ولهذا تجد أحيانًا في بعض المجتمعات من يتهاون بالصلاة المكتوبة ولا يفوت الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، مع أن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج بدعة، لم يفعله السلف أبدًا، الصحابة ومن اتبعهم بإحسان لم يفعلوه، فتجده يتهاون في الفرض، والفرائض الصلوات الخمس، ولا يفوت الأمور التي لا أصل لها في هدي نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، وهذا ناشئ من غربة الدين، وجهل كثير من الناس بفرائض الإسلام وواجباته العظام، وأيضًا جهلهم بخطورة البدع التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

*** المتن ***

كذاك الجسر ينصب للبرايا	***	على متن السعير بلا محال
فناج سالم من كل شر	***	وهاو هالك للنار صال

*** الشرح ***

هذان البيتان ذكر فيهما الناظم -رحمه الله تعالى- الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة، وهو جسر مستقيم، صراط مستقيم، وصف في الحديث بأنه أحد من السيف، وأدق من الشعر، ينصب على متن جهنم يوم القيامة، ثم يطلب من الناس أن يمروا من على الصراط، وإلى هذا الصراط جاءت الإشارة في القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]: أي جهنم، {كَانَ عَلَى

رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً} [مريم: ٧١، ٧٢]، فجاءت السنة مفسرة هذا الورود بالمرور على الصراط الذي ينصب يوم القيامة على متن جهنم.

قوله: كذاك الجسر ينصب للبرايا: أي ينصب للناس أجمعين، يطلب منهم المرور من على هذا الصراط، لا سبيل إلى الفوز بالجنة، والهناء بنعيمها إلا بالعبور من فوق هذا الصراط.

قوله: على متن السعير: أي على متن جهنم.

قوله: بلا محال: أي بلا شك ولا ريب، فهو أمر ثابت دلت عليه النصوص الصحيحة الصريحة.

قوله: فناج سالم من كل شر، وهاو هالك للنار صال: أي أن الناس حالهم على إثر هذا الأمر لهم بالعبور على متن جهنم أنهم ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: قسم ناج. أي ينجو ويسلم من السقوط في النار، ويكرمه الله سبحانه وتعالى بالعبور من فوق هذا الصراط، على أن هؤلاء يتفاوتون في العبور من حيث السرعة، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يمر جريًا، ومنهم يمر مشيًا، ومنهم من يمر زحفًا، فهم متفاوتون، وهذا التفاوت في العبور ناشئ عن التفاوت في الدنيا في الأعمال، فكلما صحت أعمال العبد وقويت وكثرت وطابت كان أسرع ذلك له في العبور، وإذا ضعفت ضعف سيره في عبوره على متن ذلك الصراط.

القسم الثاني: قسم هاو للنار صال. وهو من يهوي في نار جهنم ويسقط في النار ولا يتمكن من العبور على الصراط.

جاء في الصحيحين عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه سُئل: ما الجسر؟ قال: (مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب): أي إضافة إلى كونه مدحضة ومزلة، أيضًا عليه خطاطيف وكلاليب، أي تخطف الناس، (وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد، يقال لها: السعدان)، أيضًا هذه تخطف من هؤلاء العابرين فيسقط في نار جهنم، (يمر المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلَّم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا).

عرفنا أن هذا التفاوت في العبور راجع إلى التفاوت في السير على الصراط المستقيم الذي أمر العباد بالسير عليه في هذه الحياة الدنيا، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، والناس في سيرهم على الصراط المستقيم في هذه الحياة الدنيا متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وأيضًا لما كان الناس يبتلون في هذه الحياة الدنيا بخطاطيف من الشبهات والشهوات تحرفهم عن الصراط، وجدت أيضًا الخطاطيف والكلاليب التي تخطف الناس يوم القيامة بسبب انحرافهم عن الصراط في الحياة الدنيا.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه: (اجتماع الجيوش) بأن مشيهم على الصراط بالسرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، قال: فأسرعهم سيرًا هنا -أي في الدنيا- أسرعهم هناك، وأبطئهم هنا، أبطئهم، وأشدهم ثابتًا على الصراط المستقيم هنا، أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا، خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه هنا، فناج مسلَّم، ومخدوش مسلَّم، ومخردل -أي مقطع بالكلاليب- مكردس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاء وفاقًا، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦].

*** المتن ***

ونؤمن بالقضا خيراً وشراً * وبالمقدور في كل الفعال**

*** الشرح ***

هذا البيت فيه الإيمان بالقضاء والقدر، وهو ركن من أركان الإيمان، وأصل من أصوله العظام، وقد جاء في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، قال: أخبرني عن الإيمان. قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)، والإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وأنه سبحانه وتعالى كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كتبه في اللوح المحفوظ، وأن الأمور كلها بمشيئة الله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة، وأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شيء، وهذه مراتب الإيمان بالقدر، التي لا إيمان بالقدر إلا بالإيمان بها.

قوله: ونؤمن بالقضا خيرًا وشرًا: أي بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

قوله: وبالمقدور في كل الفعال: وأفعال العبد حركاته، سكناته، طاعاته، معاصيه، كل ذلك بقدر، {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]، فالله سبحانه وتعالى خالق الذوات وخالق ما يقوم فيها أيضًا من حركات وسكنات.

*** المتن ***

وأن النار حق قد أعدت * لأعداء الرسول ذوي الضلال**
بحكمة ربنا عدلاً وعلماً * بأحوال الخلائق في المآل**
وأن الجنة الفردوس حق * أعدت للهداة أولي المعال**
بفضل منه إحسانًا وجودًا * وتكريمًا لهم بعد الوصال**

*** الشرح ***

هذه الأبيات الأربع فيها ذكر الجنة والنار، (والجنة حق، والنار حق)، النار أعدها الله سبحانه وتعالى لأعداء الرسول ذوي الضلال بحكمته سبحانه وتعالى عدلًا منه وعلمًا بأحوال الخلائق في المآل، النار مخلوقة وموجودة أعدت للكافرين، وهذا الإعداد المسبق قبل وقت دخول هؤلاء الكفار لها مبني على علم الله سبحانه وتعالى بأحوال الخلائق في المآل.

قوله: وأن النار حق قد أعدت لأعداء الرسول ذوي الضلال: قال الله تعالى: {وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١]، فالنار معدة وموجودة بعذابها، وحميمها، وغساقها، ومخلوقة موجودة، والله سبحانه وتعالى أعدها للكافرين يدخلونها يوم القيامة.

قوله: وأن الجنة الفردوس حق، أعدت للهداة أولي المعال: والجنة أعدها الله سبحانه وتعالى للهداة، كما قال الله تبارك وتعالى: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، فهي مخلوقة وموجودة أعدها الله سبحانه وتعالى للهداة، أي الذين لزموا طريق الهدى، وسلكوا صراط الله المستقيم.

قوله: أولي المعال: أي معالي الأمور من العلوم النافعة والأعمال الصالحة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله: بفضل منه إحساناً وجوداً، وتكريماً لهم بعد الوصال: هذا فضل من الله لهؤلاء الهداة أولي المعالي، وإحسانًا وجودًا منه سبحانه وتعالى تكريمًا لهؤلاء للزومهم طاعة الله، وعملهم بمرضاته سبحانه وتعالى.

*** المتن ***

وكل في المقابر سوف يلقى * بلا شك هنالك للسؤال**

نكيراً منكراً حقاً بهذا * أتانا النقل عن صحب وآل**

وأعمالاً تقارنه فإما * بخير قارنت أو سوء حال**

*** الشرح ***

ذكر هنا -رحمه الله تعالى- القبر، والقبر كما جاء في الحديث: (أول منازل الآخرة).

قوله: وكل في المقابر سوف يلقى بلا شك هنالك للسؤال، نكيرًا منكرًا حقًا، بهذا أتانا النقل عن صحب وآل: أي من جملة الاعتقاد التي دلت عليه النصوص الإيمان بأن العبد سيلقى بلا شك ولا ريب في القبر، إذا أدرج في قبره نكيرًا منكرًا، منكر ونكير، وهما ملكان وكل الله سبحانه وتعالى إليهما سؤال العباد، ولهذا يُقال لهما: الفتّانان. ويُقال لهما: المنكر والنكير. لأنهما يأتيان على صورة منكرة ليست معهودة للعبد، ولم ير قط مثلها فيما رآه، فهي هيئة منكرة.

قوله: نكيرًا: مفعول يلقى، يلقى نكيرًا منكرًا حقًا.

قوله: نكيرًا منكرًا حقًا بهذا أتانا النقل عن صحب وآل: أي أن هذان الملكان يأتيان الميت إذا أدرج في قبره، ويسألانه من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟.

جاء في الصحيحين عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه، حتى إنه لا يسمع قرع نعالهم، آتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم؟. فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به

مقعدًا من الجنة. فيراهما جميعًا، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقوله الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين).

قوله: وأعمالًا تقارنه: هذا معطوف على قوله: نكيرًا. أي يلقى في قبره نكيرًا ومنكر، ويلقى أيضًا في قبره أعمالًا تقارنه، وهي أعماله التي قام بها في هذه الحياة صالحة كانت تلك الإعمال أو طالحة.

قوله: تقارنه: أي تكون قرينة له في قبره.

قوله: فإما بخير قارنت أو سوء حال: أي يلقى أيضًا في القبر أعمالًا تقارنه في قبره.

قوله: فإما، بخير: أي تكون مقارنة له بخير.

قوله: أو سوء حال: أي تكون مقارنة له بسوء حال.

ولهذا جاء في الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله)، عمل الإنسان يدخل معه في قبره، ويكون قرينًا له، سواء كان هذا العمل صالحًا أم غير صالح، أما أهله فلا يدخل أحد منهم معه في قبره، وأيضًا ماله لا يدخل شيء من ماله معه في قبره إلا الكفن، وهو قطعة قماش يلف بها، ثم سريعًا ما تبلى، يأكلها التراب، فلا يكون معه شيء من ماله في قبره، ولا يكون معه أيضًا معه أحد من أهله في قبره، وإنما الذي يكون معه في قبره هو عمله يقارنه.

*** المتن ***

فيا فردًا بلا ثان أجرني * وثبتني بعزك ذا الجلال**

وعاملني بعفوك واغن قلبي * بفضلك عن حرامك بالحلال**

ونق القلب من درن الخطايا * ورشني من فواضلك الجزال**

ولاطف باللطائف والعنايا * ضعيفاً في جنابك ذا اتكال**

وجملني بعافية وعفو * فإن تمنن بعفوك لا أبال**

وصلى الله ما غنت بأيك * على الأغصان من طلح وضال**

تنادي دائماً تدعو هديلاً * حمامات على فنن عوال**

على المعصوم أفضل كل خلق * وأزكى الخلق مع صحب وآل**

*** الشرح ***

لما أنهى الناظم -رحمه الله تعالى- ما يتعلق بمقاصد هذه المنظومة، وما ختمها به أيضًا -رحمه الله تعالى- من تقرير لمعتقد السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ختم هذا النظم بهذه الدعوات.

قوله: فيا فرداً: الفرد ليس من أسماء الله تبارك وتعالى، وإنما من أسمائه الأحد، والواحد، والوتر، هذه كلها تدل على الوحدانية والتفرد، ولكن لا بأس أن يخبر عنه تبارك وتعالى بالفرد.

قوله: بلا ثان: هذا هو معنى الفرد.

قوله: أجرني: أي من كل أمر يسخطك، ومن خزي يوم الدين، ومعنى أجرني: أي قني ذلك، وجنبني إياه، وأعذني منه.

قوله: وثبتني: أي بالقول الثابت، قال الله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧].

قوله: بعزك ذا الجلال: هذا توسل إلى الله سبحانه وتعالى بعزه وأنه تبارك وتعالى ذو الجلال.

قوله: وعاملني بعفوك: أي أسالك يا الله: أن تعاملني بعفوك، أما أعمالي فأنا عبد مقصر، وكثير التفريط، لكن أرجو منك يا ربي أن تعاملني بعفوك.

قوله: واغن قلبي بفضلك عن حرامك بالحلال: أي تكرم علي يا الله بأن ترزق قلبي الغنى بفضلك، مثل ما جاء في حديث علي: (اللهم: اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عن من سواك): أي أغن قلبي بالحلال بفضلك يا الله عن الحرام.

قوله: ونق القلب من درن الخطايا: وهذا له تعلق بغرض هذه المنظومة الذي هو سلامة القلب ونقاؤه.

قوله: ونق القلب: أي طهره يا الله، كما جاء في الدعاء المأثور: (ونقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس): أي طهرني من الذنوب والخطايا.

قوله: ورشني: أي ألبسني، وفي الآية الكريمة: {لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً} [الأعراف: ٢٦].

قوله: من فواضلك الجزال: فيه سؤال الله تبارك وتعالى أن يكسو عبده كساء الإيمان والتقوى، قال الله تعالى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦]، فهو يسأل الله تبارك وتعالى أن يمن عليه بلباس التقوى بأن يكون متجملًا به، وأن يكون زينة للعبد كما في الدعاء المأثور: (اللهم: زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين).

قوله: ولاطف باللطائف والعنايا ضعيفاً في جنابك ذا اتكال: أي يسأل الله تبارك وتعالى اللطف، وأن يحيطه بعنايته، وحفظه، وتسديده، وتوفيقه، ويقر بأنه عبد ضعيف لا غنى له عن ربه طرفة عين، فهو متوكل على الله ملتجئ إليه سبحانه وتعالى، لا غنى له عن ربه وسيده ومولاه طرفة عين.

قوله: وجملني بعافية وعفو، فإن تمنن بعفوك لا أبال: أي لا أبالي بعد ذلك بشيء إن تكرمني يا الله بعفوك، والعافية مثل ما جاء في الحديث: (اللهم: إني أسالك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم: إني أسالك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي)، ففيه سؤال الله تبارك وتعالى العفو، أي الصفح والتجاوز عن الذنوب التي وقع فيها العبد، والعافية سؤال الله تبارك وتعالى الحفظ فيما يستقبله العبد من أيامه وأوقاته، وفيه طلب الصفح والتجاوز عن ما وقع فيه العبد من تقصير، وفيه سؤال الله تبارك وتعالى الحفظ والتسديد والمعونة على الخير والطاعة.

قوله: بأيك: الأيك الشجر الكثيف الملتف، والواحدة منه أيكة.

قوله: طلح: شجر عظام من العضاة.

قوله: وضال: الضال هو السدر البري.

قوله: هديلاً: الهديل هو صوت الحمام.

قوله: حمامات: هذا فاعل قوله: غنت. غنت حمامات.

قوله: فنن: أي الغصن المتشعب.

قوله: على المعصوم أفضل كل خلق، وأزكى الخلق مع صحب وآل: وهذا ختم لهذا النظم بالصلاة على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وعلى الصحب والآل.

وبهذا تنتهي هذه المنظومة.

والله أعلم.